خلف أسوار المدرسة

خلف أسوار المدرسة

المدرسةُ لمحةٌ تاريخيّةٌ وأوراقٌ نقديةٌ

عـمَّـار سليمان

المحتويات

الموضوع	الصفحة
(خلفَ أسوارِ المدرسةِ) المدرسةُ لمحةٌ تاريخيّةٌ وأوراقٌ نقديةٌ	٧
إهداءٌ	١٣
شكرٌ وعرفانٌ	١٥
مدخلٌ تاريخيٌّ (المفارقة)	١٧
مفارقةُ الحربِ والإرادةِ الحرةِ	٢١
الانتقالُ إلىٰ فيتشه	٢٣
بداية القرن العشرين (استكمالُ مسيرةِ التعليمِ العامِّ معَ جورج كرشنشتاينر)	٢٨
المدرسةُ وإشكاليّةُ النظامِ (مقارباتٌ) المسلخُ	٣٦
من المسلخِ إلىٰ العبوديّةِ	٣٩
المدرسةُ والمقاربةُ الطبقيّةُ	٤١
مقاربةُ المقهورين	٤٦

الفصلُ الثاني: أطرُ الحلِّ ٥١
التعليمُ المنزليُّ وهذا الحلُّ الذي يمثلُ الخروجَ من النظامِ (الحلُّ الثوريُّ) ٥٢
أسبابُ التوجّهِ للتعليمِ المنزليِّ ٥٩
البيئةُ المدرسيّةُ ٨٧
(١) الاستفادة من البحوث العصبية ١٠٦
(٢) الفجوة بين التعليم والتطبيق ١٢٠
(٣) قتل الفضول ١٣٣
(٤) في إشكاليّةِ القدوةِ ١٤٩
(٥) قطعُ حبلِ السريّةِ ١٥٤
الحلُّ الثالثُ والأخيرُ الضغطُ علىٰ النظامِ (قصصٌ ملهمةٌ) ١٦٠
مدرسةُ العالمِ الواحدِ (سلمان خان) ١٦١
التجربةُ الفنلنديّةُ ١٨١
قصةُ المدام مونتسوري ٢٠٠
قصة الشيخ الألباني ٢١٠
كلمةٌ وخلاصةٌ للشيخِ أحمد سالم ٢١٣

(خلفَ أسوارِ المدرسةِ)
المدرسةُ لمحةٌ تاريخيّةٌ وأوراقٌ نقديةٌ

بسم الله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه ومن سار علىٰ دربه واقتفىٰ أثره واتبع هداه وبعد:

كثير من المصطلحات والمفاهيم التي تحكم سير المجتمع يَكْتَنِفُها التّعوّدُ، فتصبح خارج حيّزِ السؤال والمسألة، وتصبح كالمقدمة الضرورية من دونها لا يصحُّ دليل ولا يستقيم برهان، كذلك هو مصطلح المدرسة الذي تغلغل في المجتمع بطريقة تجعلُ التفكيرَ في أصل فكرته صعبًا جدًّا، فلو سألنا الكثيرَ من أفراد المجتمع: ماذا لو تخَلّيْنا عن فكرة المدارس؟

الأغلب تقريبًا سيقول: أولادنا أين يذهبون؟ كيف سنعلمهم؟

هؤلاء هم نفسهم الذين يحدثونا عن المخدرات في المدارس، عن سوء الأخلاق اقت داخل أسوار المدرسة، عن

ضعف الجودة في المنتج التعليمي ككل، وهذا غير مستغرب؛ فالمصطلح إذا ترسَّخ في وعي الناس، ثم تَنَمّطَ بصورة مؤسساتية خانقة = يصبح مجردُ التفكيرِ بالتحرر منه أمرًا مخيفًا، بل مخيفًا جدًّا، فهنا فكرة غياب المدرسة في العقل الجماعي عبارة عن غياب التعليم ككل، وعبارة عن عدم استكمال الجامعة التي لا نستطيع العبور إلىٰ بوّابتها إلَّا من خلال أسوار المدرسة، وغياب المدرسة يعني غياب الوظيفة وضياع مصدر الرزق، وبغياب المدرسة تفقد جزءًا من هُويتك الوطنية، أو أجزاء كبيرة منها، فأنت عند الدّولةِ أُمِّيٌ، وعند مجتمعك مسكينٌ لم تسعفْك بيئتك في النَّيل مِن ينابيع المدرسة الصافية!

مع كل ما يكتنفه وضع مفهوم (كالمدرسة) تحت السؤال من صعاب في ظل تمكُّنٍ مؤسساتيّ هرميّ صلبٍ؛ إلَّا أنَّ طَرق الباب أفضلُ من الوقوف خارجًا دون حراك، وأفضل من النسيان الذي تفرضه المؤسساتية علىٰ الناس فَتُنسيهم وهج السؤال وأهميته، وإن كانت المؤسساتيّة بكل أفْرُعِها تحاول أن تسلب الإنسان أساس وعيه وهو السؤال= فنحن هنا لإعادة إحياء هذا الوعي، والتأكيد علىٰ حق السؤال والنقد لتلك المفاهيم التي تخترق حياتنا وتُشكلها دون أن تمنحنا الحق في الاستفسار، وهذا ما فعلته هنا بكل اختصار.

*** أهميّةُ الكتابِ:**

إنَّ الأهمية الأولىٰ وهي في نظري أهم ما في هذا الكتاب=

ذلك المدخل التاريخيّ المَنْسيّ عن فكرة المدرسة:

كيف تكونت فكرة المدرسية؟

ما الدواعي السياسيةُ والتاريخيةُ لتَكَوُّنِها؟

كيف تم استغلالها في الإنتاج الحربي، وتحويل نظام العبودية من المجتمع إلىٰ المصنع؟

مَن أهم الشخصيات التي أسست لفكرة التعليم الإلزامي وسعت لتغيره؟

كل هذه الأسئلة وأكثر منها يجيب عنها **الفصل الأول من هذا الكتاب**، الذي يمثل المدخل التاريخي لفكرة المدرسة، وكما هو معلوم في سير الأبحاث أنَّ حياة المصطلحات في تتبع تاريخها؛ فنعرف مولدها ونموها، ثم سيرها إلىٰ مرحلة النضوج والاستحكام= وهذا التتبع هو ما فعلتُه في هذا الفصل، وهذا -حسب علمي ومعرفتي- لم يتعرض له أحد في الوطن العربي بهذه الصورة.

تنبع الأهمية الثانية لهذا الكتاب في تقديم مجموعة من المقاربات التي تقارب فكرة المدرسة في مجموعة من المفاهيم القاسية التي توضح أي ظلام يتكدس تحت هذا المفهوم الوديع، فسننظر العلاقة بين المدرسة والمسلخ، وبين المدرسة والقهر، وبين المدرسة وترسيخ نظام العبودية كل هذا وغيره سيختص به **الفصل الثاني من الكتاب**.

أمّا **الأهميّة الثالثة**؛ فهي تتمثل في طرق الحل التي طبحتها في هذا الكتاب، والتي تنقسم إلىٰ ثلاثة بدائل:

(١) التفكير بالخروج من النّظام المدرسي بحلّ ثوريّ وهذا يتطلب تناول نقيضه وهو التعليم المدرسي، فتتبعت تاريخه وأهميته وفوائده وأهم النقود عليه وناقشتها موافقًا أو معارضًا.

(٢) الحلّ من داخل نظام المدرسية نفسه، وهنا تعرضت لأهم المشاكل داخل البيئة المدرسية وطرحت حلولًا ممَّا قرأت واطلعت ومن خبرتي في التعليم.

(٣) الضغط علىٰ النظام لتغيير نفسه.

الأهمية الرابعة في هذا الكتاب تُشتق من النقطة الثالثة من أُطُرِ الحلّ، حيث جعلت نقطة الضغط علىٰ النظام المدرسي تتمثل في اتخاذ قصص خالفت هذا النظام ونجحت، فتجولت في حقل سلمان خان ورحلت إلىٰ النظام الفنلندي وروعته وتميزه، وأنخت ناقتي علىٰ باب المدام مونتسوري ومنهجه الفريد في التعليم وأنهيتها في مجموعة من القصص الناجحة التي تميزت دون أن تطرق باب المدرسة.

في نهاية هذه المقدمة أرجو أن يكون هذا الكتاب فاتحةَ خير لنقد ودراسة مفهوم التعليم بشكل دقيق، ويكونَ كاليد التي تحمل المعول، فلا تهدم لمجرد الهدم، بل تهدم لتصحح البناء وتجمله وتحاول أن تتجنب مواطن نقصه، وأظن أن هذا البناء -التعليم- يستحق هذا العناء؛ فمن دونه لا تنهض أمة ولا يصلح جيل،

وبهجران تقويمِه لن نضعَ لنا بصمة وين يكونَ لنا أثر.

رحم الله امرأً نظر للكتاب فوجد نقصًا، فنقد ونصح فأصلح؛ فمن يجد موطنًا لذلك؛ فليكرمني به، فهذا عندي غاية الكرم وأعظمه.

كتبه

عمَّار سليمان

بتاريخ ٢٦/ ٢/ ١٤٣٨ من هجرة رسولنا محمد ﷺ

إهـــداءٌ

إلىٰ من كسا الترابُ جسدَه ورحل عن هذه الدنيا مريضًا متعبًا ... إلىٰ روحك الطاهرة التي تسكنني ولا تغادر، إلىٰ أنفاسك التي لا زلت أسمع حسيسها نارًا تشتعل في صدري شوقًا إليك ... إليك يا من أشعلت روحي بوقت صحتك ووقت تعبك ... إليك يا أبي أهدي هذا العمل!

إلىٰ ذلك التاج الذي كنت أوقظُه من نومه ليدرسَني ... إلىٰ ذلك القلب الذي كانت ولادته الجديدة بولادتي ... إلىٰ ذلك الحضن الذي لم يغادرني دفؤه رغم بعدي وغربتي ... إليك يا بقايا الخير والنور في حياتنا يا أمي!

إلىٰ رفيقتي وحبيبتي التي تحملت انشغالي في الكتابة رغم حملها وتعبها ومرضها ... إلىٰ من كانت لي سكنًا وقلبًا وحُبًّا ... إلىٰ ذلك النور الذي أشرق بالقرب من طور سيناء فأكرمني بك ... إليك يا زوجتي!

إلىٰ أخي وأستاذي وشيخي ... إلىٰ هذا العقل الذي نفتخر به ونكتب ... إلىٰ تشجيعه الذي ما انقطع عني يراعه منذ أن عرفته ... إلىٰ قلبه الذي يكلمني عند سماع صوته ... إلىٰ تميزه وجهده

الذي ألهمني وألهم غيري . . . إليك أهدي كتابي يا أبا عمر (أحمد سالم)!

إلىٰ أخي وأختي وأحبتي أهديكم جهدي وتعبي!

شكرٌ وعرفانٌ

مجددًا ودائمًا أشكر أستاذي أحمد سالم علىٰ تشجيعه وصبره عليّ، وأشكر قلمه الذي كان دائما نبراسًا ونورًا لنا، والله أسأل أن يبارك به وينفع.

إلىٰ أخي الدكتور محمد المناصرة الذي أنهكته معي في كثرة المراجعة والنقاش، شكرًا علىٰ نصحه وصبره وحبه وعلىٰ كل ما قدمه لي في رحلتي في الكتابة.

إلىٰ أخي الحبيب محمد إبراهيم سالم الذي ما أن طلبت منه كتاب «مصر بلا مدارس» إلا وكان عندي بعد أيام= فشكرًا له بحجم قلبه وخيره.

إلىٰ رفيق قلبي وأخي خالد جرار وزوجته المصون علىٰ نصحهم وطيبهم وكرمهم علىٰ أخيهم، والله أسأل أن يتمم لهم كل خير ونور وبركة.

مدخلٌ تاريخيٌّ
(المفارقة)

كانت بداية قصة المدرسة النظاميّة كما يرويها الكثير من مؤرخي التعليم مع بزوغ رأي الزعيم البروتستنتي مارتن لوثر كينج، وتمثل هذا الرأي في أنَّ الخلاص يعتمد علىٰ القراءة الشخصيّة للنصوص المقدّسة، ولا يعتمد علىٰ سلطة الإكليروس[1]، ومن هذا الرأي الديني البحت أعلن مارتن لوثر كينج وغيرَه من قادة الثورة الدينيّة أنَّه يجب أن يكونَ التعليم العامّ مهمةً رئيسةً من مهام الكنيسة؛ لتُجَنِّبَ الأفرادَ ذلك الانغلاق التفسيريّ الذي كانت تفرضه الكنيسة الكاثوليكية، فلا تجعل النصوص أسرارًا يحتفظ بتفسيرها القلة من الرهبان.

ويُضاف إلىٰ هتاف مارتن ورفاقه ما كان يحكمه المزاج العام في تلك الأيام من بداية الدعوة إلىٰ الحرية، والانفلات من القديم

(١) **الإكليروس**: هو النظام الكهنوتي التي تفرضه الكنيسة، وتعطي بناءً عليه عدة رتب لمجموعة معينة من الناس تمنحهم الكثير من الصلاحيات، منها تفسير النصوص المقدسة.

كي تُعمل عجلة التطور وتنطلق، ومن ثَمَّ ينتقل الإنسان من كائن مكتشف للطبيعة أو متحسس لوجودها إلىٰ مسيطر عليها ومُخضع لها، وهذا الإخضاع يؤرخ له الدكتور الطيب بوعزة مع الكوجيتو الديكارتي حيث يقول:

إنَّ دلالة الكوجيتو لم تقتصر علىٰ «أنا أفكر= فأنا موجود»، بل تتعداها إلىٰ «**أنا أقدر= إذن أنا موجود**»، والقدرة هنا تمثل تمام الوعي بالحرية؛ ولترسيخ هذا المعنىٰ كانت الدعوة إلىٰ التعليم العام للتخلص من أصفاد الماضي ومخلفاته.

لكن وكعادة اللغة والطبيعة البشرية دائما ما تحتوي في داخلها علىٰ مجموعة من المفارقات يستغلها أصحاب النظر؛ فالمفارقة هنا أنَّ هذه الدعوة التي أطلقها مارتن لوثر كنج، بالإضافة إلىٰ ذاك المزاج الضاج بمعنىٰ الحرية لم يترك من قِبَلِ أصحاب الأيديولوجيات المختلفة، وتحولت دعوة الحرية إلىٰ أصفاد فكريّة:

في القرن الثامن عشر -وهو الأهم لنا- أصبحت مستعمرة ماساتشوستس أول من فرض التدريس العام، وكان الهدف الواضح من هذا الإجراء هو تحويل الأطفال العاديّين إلىٰ طهورين جيدين.

وبدأت عملية الاحتواء لهذه الفكرة تمضي سريعًا، فأصحاب المصانع رأوا أنَّ هدف المدرسة الرئيس هو إخراج عمال جيّدين، فمن وجهة نظرهم يجب التركيز في الدروس علىٰ الدقة واتباع

الإرشادات، ثم الصبر علىٰ العمل الممل لساعات طويلة، مع الحصول علىٰ أقل قدر من المهارات التعليمية، ويُحَبَّذُ أن تُختصر في تعليم القراءة والكتابة.

وإذا انتقلنا حين تبلور مفهوم الأمة واتخاذها المعنىٰ المركزي في الحقبة الأوروبية نظر قادة هذه الأمم إلىٰ وجوب تركيز فكرة المدرسة علىٰ إنتاج مواطنين جيدين وجنود قويين، أما فيما يخص الدرس؛ فيجب التركيز علىٰ تمجيد أرض الأجداد، والمعجزات التي تحققت علىٰ يد القادة الأوائل، وبث مناقبهم وأخلاقهم، مع التشديد في الدروس علىٰ حماية الأمة من الأعداء الكُثُرِ الذين يتربصون بها.

«في (سنة ١٧٧٦م) عند إعلان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية، كانت أمريكا تعاني من انقسامات كثيرة بالإضافة إلىٰ الكثير من المشاكل مثل العبودية، ومشاكل حكومية، ومشاكل في الهجرة والضرائب وإشكالات سياسية أوجبت التفكير بحلول لهذه المعضلات، وفي أثناء التفكير لحل هذه المشكلات وتوحيد البلاد علىٰ قلب رجل واحد قُرِّرَ أنَّ نظامًا تعليميًّا رسميًّا بات مطلوبًا، ومن أوائل من دعا إلىٰ ذلك: ريتشارد راش (Rizhard rush)، حيث قال:

إنَّ هذا النظام يجعل الناس أكثر انسجامًا بالإضافة إلىٰ أنَّه يجعلهم أنسب للشكل الرسمي للدولة مع إمكانية قيادتهم بطريقة وديعة.

ومن المناصرين لهذه الفكرة مؤلف أول قاموس أمريكي متكامل نوح ويبستر (Noah webster)-، حيث قال: إنَّ هذا يرسخ في عقول الشباب الأمريكان مبادئ الطهارة والحرية»[1].

(١) The Curiosity of School: Education And The Dark Side Of Enlightenment soft cover - by ZANDER SHERMAN, p ١١-١٢.

مفارقةُ الحربِ والإرادةِ الحرةِ

«بشكل غير معقول أصبحت هذه الحرب هي الشرط النهائي لإقامة نظام التعليم الحديث!». (زاندير شيرمان).

من الغريب أن يكونَ هذا النّظام التعليميّ التنويريّ في المدارس قد بُني في الأساس علىٰ حرب قامت بين فرنسا وبروسيا، ومن الغريب أن تكون قمة الفوضىٰ -التي هي الحرب- تؤدي إلىٰ هذا النظام الصارم، ولكن ليس من الغريب أن تكون الهزيمة هي الذي دعت إلىٰ محاولة البحث عن البعث الجديد للأمة، التفكير الأممي وإعادة ترميم الجيش والذات هي السبب الرئيس لما نحن عليه الآن من التعليم النظامي، فكيف كان ذلك؟

كانت البداية عندما قرر نابليون بونابرت الهجوم علىٰ بروسيا، وقد كبدها خسائر كبيرة جدًّا ممَّا أورث الروسين كثيرًا من الحرج، وتبدأ المفارقة مع التحاق شارنهورست الذي أتىٰ من عائلة تهتم بالفلاحة إلىٰ الجيش البروسي، حيث التحق به في برلين، وكان شارنهورست في الأساس مهتمًا بنظرية التعليم، والتي تسمىٰ في الإلمانية (Bildung)، فمن كلماته التي تبين إرهاصَ تفكيره وتغيره لطبيعة العقلية البروسية قوله: «الحرب ستكون أقل وحشية وأقل

فوضوية وأكثر كفاءة ما لو كان الجيش متعلمًا!».

تدرج شارنهورست في الجيش البروسي حتىٰ أصبح قائدًا كبيرًا وصاحب منصب برستيجي في ذلك الجيش، والعجيب أيضًا أنَّ جيشه لم يكن منظمًا، ولم يكن متعلمًا حتىٰ إنه كتب إلىٰ ابنته مستاءً: «ما يجب أن يفعل أعرفه جيدًا، ماذا سيحدث الله وحده يعلم!».

وطبعًا كانت النتيجة أنَّ عشرة آلاف من الجيش البروسي ذُبح وأن شارنهورست هرب ناجيًا بحياته وفي خضم هذا تلقىٰ شارنهورست أخبارًا غريبة من فريدريك وليم الثالث ملك بروسيا في ذلك الحين، حيث منح شارنهورست الحرية التامة في فعل ما يريد في النظام العسكري للبلاد.

وبدأت أسرع عملية تغير وأكثرها راديكالية لنظام الجيوش في ذلك الوقت، وبعد هذا النظام الصارم استعاد الجيش عافيته وقوته، نتيجةَ هذه التربية العسكرية التعليمية الصارمة!

الانتقالُ إلى فيتشه

يأتي دور الفيلسوف فيتشه الذي انشغل بمعرفة أسباب الهزيمة من قبل فرنسا، وقال في هذا: «في كلمة واحدة= يجب تغيير نظام التعليم الحالي كليًّا، وأهدف من هذا إلىٰ جعل المعنىٰ الوحيد لإدراك الوجود هو الأمة الألمانية!».

رأىٰ فيتشه أنَّ نظام التعليم القديم الذي خطه أول ملك لبروسيا كان خاطئًا؛ لأنَّه يعزز مفهوم حرية الإرادة (Free well)، فجعل ذلك جل مواطني الدولة البروسية يفكرون في أنفسهم، ولا يفكرون في الدولة ممَّا أربك الدولة وأضعفها.

وهنا يحدثنا فيتشه عن النظام الذي يحلم به: «في النظام الجديد سنُقَولِب الألمان لنجعلهم جسدًا متماسِكًا، بحيث نحفز ونعيد إحياء كل فرد في الدولة، ونصب اهتماماتهم في نفس الاتجاه».

= من هذه المعطيات بين الحرب وقتل حرية الإرادة؛ ظهرت فكرة التعليم الإجباري (compulsory education)، وهنا يخرج علينا فيتشه مجددًا ليقول: «من خلال التعليم الإجباري سيمضي الشباب نحو جيش قوي، سنحتاج إلىٰ جيل علىٰ الأقل حتىٰ نرىٰ التغير قد حصل».

ويُلخِّص لنا راسل فكرة فيتشه عن التعليم الإجباري قائلًا:
«يرىٰ فيتشه أنَّ التعليم يجب أن يدمر حرية الإرادة، فبعد خروج التلاميذ من المدرسة يجب أن يعدموا القدرة علىٰ التفكير أو التصرف بطريقة غير التي تم تعليمهم إياها في المدرسة طيلة حياتهم الباقية».

إذًا عامل التدريب العسكري الشديد ونظام المدرسة الإجباري تداخلًا في بناء المجتمع البروسي ممَّا جعل بعض المؤرخين يقول: إنَّ خلاصة التعليم البروسي عبارة عن تعليم عسكري لا أكثر = وهو كذلك.

بعد انتصار (١٨١٥م) الذي حققه الجيش البروسي علىٰ نابليون بدأت الوفود تزور بروسيا؛ لتضع يدها علىٰ الكيفية التي انتصرت بها دويلة صغيرة ونصف شعبها الأصلي تم تصفيتهم ونصف أموالها سرقت بالإضافة إلىٰ جيشها الممزق= علىٰ دولة ذات قوة عظمة في ذلك الوقت وهي فرنسا، فأصبح نظام شارنهورست الإصلاحي للجيش عبارة عن أحد أهم العناصر لهذا الانتصار الباهر، والذي يحاول الناس اقتفاء أثره، وإذا أردنا أن نقتفي أثر هذا التأثير لننظر إلىٰ مقال نشرته نيويورك تايمز قيل فيه: «نظام التعليم البروسي لا ينافسه أي نظام تعليمي في العالم، وهذا هو سر تطورهم الداخلي ... كان هدفهم من هذا التعليم هو توحيد الشعب الألماني وتمديد التجربة علىٰ كل رقع الدولة».

يضاف إلىٰ ما قالته النيويورك تايمز ما شاهده أحد الصحفيين

الذي زار بروسيا في ذلك الوقت حين يروي أنَّه لم يشاهد دموع أي طفل في أثناء عقابه، بل حتىٰ إنَّ الأطفال لا يوجد عندهم شعور بالخوف من فكرة العقاب، بل هم مُتَماهون معها تمامًا، ويرىٰ هذا الصحفي أنَّ هذا التعليم الصلب من أسباب ذهاب الناس إلىٰ المدارس، ولكن شيرمان يخبرني عن سبب آخر ألا وهو الحبس للأبوين، أو حتىٰ للطفل في حال أن تم رصد هروبه أو تغيبه عن المدرسة؛ ولهذا كثير من مؤرخي تلك الحقبة التعليمية في ألمانية يقولون: إن نسبة الهروب كانت قليلةً جدًّا، بل في الحقيقة لم تكن أصلًا!

وبعد هذه الأحداث العظام -من الانتصارِ الذي شجع عسكرة التعليم- بدأت الدول المجاورة -وأهمها فرنسا نفسها- التطبيع مع النظام البروسي، وصولًا إلىٰ بريطانيا منها إلىٰ كندا، واستقر الأمر في أمريكا؛ ليتوسع لكل دول العالم تبعًا.

ندخل في حقل رجل آخر كانت له بصمته في التعليم النظامي وهو هوراس مانن الأمريكي المولود (سنة ١٧٩٦م) كان من أحلام هذا الرجل أن يغير التعليم في الولايات المتحدة، وكان همه أن يصنع نصرًا للبشرية علىٰ حدِّ قوله، وقد حصل علىٰ الفرصة في ذلك عندما تم تعيينه في (سنة ١٨٣٧م) في مجلس التعليم في مستعمرة ماساتشوستس المنصب الذي بقي به (١٢ سنة كاملة)، ومنها انتقل إلىٰ تغيير التعليم العام في الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي (سنة ١٨٣٨م) نجح هورس في إنشاء مدرستين عامتين

تعنيان بالتعليم الإلزامي في ولاية ماساتشوستس، ومع (سنة ١٨٣٩م) كان توجه هوراس صارخًا حيث كتب: «إنَّ المجلس يسرع في أن تصبح مدارسنا إلزامية مثل نظام التعليم في كل من بروسيا وفرنسا».

مع كل ذلك وجد هوراس الكثير من المعارضة، حتىٰ عد البعض هذا النظام الجديد مخالفًا لروح البلاد التي تسعىٰ إلىٰ الديمقراطية، وأنَّ هذا النظام يحتكر القوة في جانب واحد، وفي مخاض هذه المطحنة الفكرية كتب هوراس في (سنة ١٨٤١م) تقريره الخامس، وضمنه رسالة من أحد العمال والصناعيين الماهرين، حيث كان رأي هذا العالم أنَّ الموظفين المتعلمين في المدارس العامة والنظامية أقل شربًا للكحول وتبعًا لذلك لا يكسرون الآلات المصانع، وهم أكثر ذهابًا للكنسية - كناية عن توجهم المحافظ -؛ ممَّا يمنحهم حياةً هادئةً ومستقرّةً لهم ولعوائلهم.

في ربط نظام التعليم بالنظام الرأسمالي استطاع هوراس أن يقنع أحد رجال الأعمال لدعم التعليم الإلزامي، وبعد أن كان التعليم الإجباري في بروسي يحول الطلاب إلىٰ جنود شديدين، تم تحويلهم إلىٰ عمال أقوياء hardworkers مع هوراس، وإلىٰ جماعة مطيعة للقانون سهلة الانقياد ضمن قطيع المواطنين.

ومن رمزيات هوراس الشهيرة قوله: أن الرجال أشبه ما يكونون بقطع الحديد، أما الأطفال فكالشمع.

والحديد كما هو معروف لا نستطيع التعامل معه بسهولة أما الشمع فنستطيع تشكيله كيفما نريد، فهنا يحدثنا هوراس عن كيفية تصنيع أو تشكيل الطفولة بالطريقة التي تفيد الدولة لصنع ذلك المواطن الخاضع للقانون الذي ينكر أي شيء لم يتشكل عليه، إنَّها فلسفة فيتشه بكل ما تعنيه الكلمة من معنىٰ، فأنت بإعادة تشكيل الأطفال كيفما تريد فإنك تدمر حرية إرادته حرفيًّا.

بداية القرن العشرين
(استكمالُ مسيرةِ التعليمِ العامِّ معَ جورج كرشنشتاينر)

كانت بداية القصة في ورقة علمية قُدِّمَتْ للأكاديمية الملكية للعلوم، تحت عنوان: «التعليم للتوطين»، وصاحب هذه الرسالة هو البروفسور جورج كرشنشتاينر. كانت فرضية كرشنشتاينر الأساسية أنَّ التعليم ليس من وظيفته فقط إخراج عمال ماهرين، بل عليه أيضًا أن يخرج لنا مواطنين مفيدين (useful citizen)، وعلىٰ المواطنين أن يعوا أن مسالة إخلاصهم لحكوماتهم هي مسألة أخلاقية في الأساس لا يمكن التساهل فيها.

في ذلك الوقت كانت الصناعات الألمانية في أوجها حتىٰ إنَّ صناعة الصلب كانت من أقوىٰ الصناعات في العالم، فإنتاج ألمانيا من الصلب كان ضعف فرنسا في ذلك الوقت، بناءً علىٰ ذلك أصبحت ألمانيا أكبر قوة اقتصادية في العالم، ولكن كرشنشتاينر لم يقنع بأن ذلك يستحق كل هذا الاحتفال.

وملخص فلسفة كرشنشتاينر أنَّ التعليم المهني لا يجب أن يتوقف علىٰ التفوّق الاقتصادي أو علىٰ العمل بقدر ما يربط هذا

العمل وغيره بالتوطين، حيث يصبح العلم ليس هو الغاية بل وسيلة، ومشكلة المدارس المهنية -حسب ما رأىٰ- أنَّها تشجع علىٰ الأنانية، ولا تشجع علىٰ التوطين.

هذا الطرح الاشتراكي جعل النظر لفلسفة كرشنشتاينر في مجتمع رأسمالي عبارة عن الفلسفة البالية أو قديمة، وقد اعترفت الأكاديمية الملكية بذلك، وفي زمن كانت الفردية طاغية لم يكن لفكر كرشنشتاينر تلك الشهرة، لكنها ستظهر هذه الشهرة بعد ذلك في أمريكا.

مع تقدم القرن العشرين؛ بدأ العالم يتغير سريعًا، فمن ناحية المصادر: أصبح هناك إمكانية استيرادها وتصديرها وبالمختصر هو انتقال الاقتصاد من اعتماد العالم علىٰ المصادر الخامة إلىٰ تدخل العامل البشري بقوة، **ومصادر الإنتاج -كما هو معلوم- تتلخص في ثلاثة مصادر:**

الأولىٰ: هي المصادر الطبيعية أو الخام كالمباني والآلات وهذه تسمىٰ: **(رأس المال)**.

الثانية: المصدر النقدي.

الثالثة: المصدر البشري.

كان العنصر البشري مهما في الماضي، لكنها صعد صعودًا قويًّا جدًّا كان ذلك في بداية القرن العشرين مع تحولات المجتمع الدولي إلىٰ مجتمع صناعي يحتاج إلىٰ العمال وأيديهم، ثم تفاقم

دور هذا العنصر إلىٰ عصر التكنولوجيا حيث أصبح عقل الإنسان ومعرفته هو أقوىٰ المصادر حصرًا وأغلاها ثمنًا، في هذه المرحلة دخلنا حمىٰ المنافسة للحصول علىٰ التفوق، إلىٰ هنا أين دور المدرسة في ذلك؟!

المعادلة بسيطة: الكل يدخل المدرسة، علىٰ المدرسة أن تعيد هندسة نفسها لنحصل علىٰ نتائج مختلفة في هذا العصر الصناعي؛ إذن لو غيرنا نظام المدرسة سنغير فعليًّا العالم= وقد حدث.

كان لكل من ديل كارنيجي وجون روكلفر الأثر الكبير في إحداث هذا التغيّر من خلال الأموال الضخمة جدًّا التي تم ضخها في العملية التعليمية، ولك أن تتخيّل أن روكلفر صرف علىٰ التعليم في وقتها أكثر من الحكومة الفدرالية ذاتها، أضف إلىٰ ذلك أن أكبر منحة تعليمية في تاريخ ذاك الوقت قدمها روكلفر وكانت قيمتها (١٢٣ مليون دولارًا)، ولم يتوقف عن تقديم المال بعدها، وفي أثناء هذه الفترة كانت هناك اجتماعات عدة بين المانحين وكان يرأسها روكلفر، هل كانت هذه الأعمال فعلًا تأخذ الطابع الخيري؟

للإجابة عن هذا السؤال نأخذ قرار هذه المجموعة من المانحين في دعم تعليم السود وتحريرهم من نظام العبودية، حيث صرف المجلس التعليمي الذي يتكون من هذه المجموعة من (سنة ١٩٠٢م) إلىٰ (سنة ١٩٤٦م) ما يقارب (٣٢٤ مليون دولارًا).

هذا المجلس الذي صرف كل هذه المبالغ لم يكن لينظر إلىٰ الأمر علىٰ أنَّه عمل خيري، بل كان محك النظر عندهم أن هذه

فرصة لإعادة التدوير والإنتاج، فهذه المدارس تؤمن لهم العمال الذين استعان بهم روكلفر نفسه في بناء السكك الحديدية وتشغيل المصانع القطنية.

نعود للشخص الثاني -اندرو كارنيجي- وجد نفسه وطريقه في تجميع مجموعات منافسة تهتم في التعليم الصناعي، وأقام اسمًا واحدًا لها وهو الجمعية الوطنية لتعزيز التعليم الصناعي (NSPIE)، وكان يتمحور عملها في أربعة أهداف مهمة:

(١) رفع وعي عامة الناس حول أهمية التعليم الصناعي.

(٢) مناقشة ودراسة مراحل التعليم الصناعي.

(٣) نشر كل النتائج ذات الصلة بالتعليم الصناعي.

(٤) وفي النهاية تأسيس مدارس تدريب مهني.

نعود الآن إلىٰ كرشنشتاينر وكيف تم إعادة إحياء فكره في أمريكا!

تم إعادة طرح فكر كرشنشتاينر من خلال الطالب هولمز بيكويت، وكانت البداية في الصيف الشديد الحرارة (سنة ١٩١١م) حين ذهب بيكوت راكبًا القطار، وزار مدارس ميونخ وبرلين وهمبورغ، كان هدفه: تحديد أي الطرق يجب علىٰ الولايات المتحدة اتخاذها لتطوير التعليم الصناعي وخدمة العمال الصناعيين، بالإضافة لخدمة كافة الشعب، وبعدما زار كل من مدرسة ميونخ والمستمر كتب أطروحته: «**أصول ودهاء شخصية**

دكتور جورج كرشنشتاينر»، وكتب بعد هذه الرحلة: «إن استفساراتي عن التدريب الصناعي الألماني قادتني لأنْ أتمنىٰ أن دولتنا لم تسمح للتمهن الذي أدىٰ لهذه الرجعية، وتمنيت أن نعيد إحياء نظامنا المهني من جديد!».

وسنحت الفرصة لهولمز بيكويت عندما اقترح أن يوسع مجلس التعليم المهني ليشمل كل من الممثلين عن العمل بالإضافة إلىٰ الممثلين عن قطاع الأعمال، بالمختصر الجمع بين الطبقة العاملة وأرباب العمل، واستمرت المناقشات حتىٰ حصل هذا المشروع علىٰ موافقة اتحاد العمال الأمريكيين (ALF)، وعلىٰ دعم الرابطة الوطنية للصانعين (NAM)، وتم الاتفاق علىٰ تشكيل كيان واحد من كلا الطرفين.

في خضم هذه النقاشات أصدر الكونجرس قرارًا لدعم التعليم المهني وشكل لجنة مكونة من خمسة من الجمعية الوطنية لتعزيز التعليم الصناعي وأربعة أعضاء من الكونغرس لمتابعة هذا الملف، وهنا حظيت هذه المنظمة التي قام عليها كارنيجي علىٰ دعم الاتحاد العمال الأمريكيين، والرابطة الوطنية للصناعيين مما شكل قوة ضاربة تدفع باتجاه التعليم المهني.

في لحظة تاريخية أعلنت اللجان تقريرًا نهائيًّا أن التعليم الصناعي يحظىٰ علىٰ اهتمام وطني عاجل وأمر ضروري لاستكمال أعمال الاتحاد الفدرالي، وتعتبر مدارس بروسيا نموذجًا ملهمًا للكفاءة الصناعية والازدهار الوطني، تقلل من الاضطرابات

الاجتماعية واضطرابات العمال وتروّج لمعايِر حياتية عالية للعمال.

في تلك اللجان عضوان مهمان من مجلس الشيوخ الأول هو هوك شميه والثاني هوز وهما اللذان اقترحا التشريع هذا، يظهر أثر كل من سميث وهوز كان في (سنة ١٩١٧م)، حيث وزعوا مليوني دولار للتدريب المهني في ذاك العام، واستمر هذا الرقم في الارتفاع إلىٰ أن وصل (سنة ١٩٢٥م) إلىٰ سبعة ملايين، وبعدها شيدوا المجلس الاتحادي للتعليم المهني وهو منظمة مستقلة تضم لجان العمال وقطاع الأعمال، ونتيجة لما أوصىٰ به بيكويت تم تفعيل مقدمة عن الاقتصاد المنزلي والاقتصاد التجاري في كل يوم دراسي.

أخيرًا؛ نجحت منظمة كارنيجي في الضغط علىٰ الحكومة لإصدار هذه القرارات، وتم استيراد فكر كرشنشتاينر وإدخالها إلىٰ الولايات المتحدة الأمريكية لتحويل الطلاب من عنصر بشري إلىٰ عبارة عن ترس رأسمالي عامل ونقله من عبودية المجتمع إلىٰ عبودية المصنع، وانتقل هذا المفهوم تبعًا لكل العالم.

أردنا وصف العلم وتبعًا المدرسة في مرحلة بعد الحرب العالمية الأولىٰ والثانية لا أجد أفضل مما وصفه رشيد الحاج صالح قائلًا:

إنَّ العلم منذ الحربين العالميتين، أصبح أهم أدوات الموت والدمار في العالم كما بين ميشيل سير، أمَّا الفيلسوف هابرماس؛ فإنَّه يتحسر علىٰ مقولات عصر الأنوار من عدالة ومساواة وحرية

التي تلاشت وذهبت أدراج الرياح، فالتقدم العلمي لم يؤدِ إلىٰ العدالة والمساواة وتعزيز حرية الإنسان، بل أدَّىٰ إلىٰ استعباد الإنسان، وتحويله إلىٰ خادم، وتابع للآلات والشركات والحكومات، حتىٰ الديمقراطية والانتخابات العامة التي تجري في مختلف الدول لم تستطيعا تحرير الإنسان من آليات الاستغلال، ولم تمنحاه الحرية والعدالة التي يصبو إليها، ذلك إن السيادة السياسية والاقتصادية «آلية استغلال اقتصادي»، وهي التي تفرض شروطها في النهاية[1].

وفي النهاية ولتكتمل المفارقة تشير وفاء بسيوني إلىٰ أن من أهم المؤسسات التي دعمت التعليم المدرسي -الذي هو ثورة شاملة علىٰ التعليم النظامي- والتي كونت تكتلات ضد البيئة المدرسية هم الجماعات المسيحية وخاصة البروتستانتيين الذين وجدوا أنفسهم في خلاف مع مؤسسات التعليم التي دعموها من قبل[2]، بل كانوا من المؤسسين لها فكريا مع لوثر كينج، والسياسة

---

(١) «**الوجه الآخر للعلم، احتواء العلم في المجتمعات الحديثة**»، رشيد الحاج صالح، الدار العربية ناشرون، الطبعة الأولىٰ، (ص/٢٥٣).

(٢) «**مصر بلا مدارس**»، وفاء بسيوني المكتبة العصرية، (ص/٣٢)، نقلا عن الدراسة التالية:

Rymond moore, home built discretion (Nashville, TN: Thomas Nelsonic,1978), p,28

البحث التاريخي في مجمله مستفاد من كتاب:

كما عودتنا تقلب السحر علىٰ الساحر؛ فتسجن من ناضل وتقيد من دعا إلىٰ الحرية وتُجهّل من رام التعلم[١]!

(١) The Curiosity of School: Education and the Dark Side of Enlightenment, softcopy, p9-38

المدرسةُ وإشكاليّةُ النظامِ
(مقارباتٌ)
المـسلـخُ

يخبرنا عراب التغير للفكر المدرسي الحديث البروفسر كين روربنسن أنَّه بينما كان في العشرينات من عمره ذهب في رحلة إلىٰ مسلخ كبير يتم فيه ذبح الحيوانات -ويعلق روبنسون بأنه لا يذكر حتىٰ لماذا ذهب إلىٰ هناك- وتكمن المفارقة التي لاحظها روبنسن أن في المسلخ مجموعة من الأطباء البيطريين، فتعجب من وجودهم وبعد ملاحظته الإعياء الذي يظهر علىٰ أحدهم في منتصف يوم العمل توجه للدليل وسأله: لماذا يوجد أطباء في هذا المسلخ؟!

كان جواب الدليل أنَّ وجودهم بشكل دوري لفحص الحيوانات والتأكد التام أن جثثها ماتت بالكلية!

ما الرمزية التي تحاول هذه القصة أن تنقله لنا؟

يعبر المسلخ هنا عن المدرسة ونظامها أمَّا الأطباء فهم مجموعة المعلمين الذين يجب عليهم التأكد التام من أن الطلاب -يرمز لهما هنا بالحيوان المذبوح- قد تم قتل إبداعهم تمامًا، وتم

تصفية حس الفضول فيهم، وعليه إن بنيت نظامًا معينًا لهدف معين، فلا تتعجب إن قام هذا النظام بما طلبت منه، فإن بنيت المدرسة علىٰ أن تنهي حس التفرد والتميز وتقتل التخيل وتغتال عناصر الإبداع، فلا تتفاجأ إن فعلت المدرسة ذلك[1].

ومن الممكن هنا أن نطور هذه الرمزية التي قام بها بروبنسون ونسأل: هل المدرسون فعلا هم من يمثلون دور الأطباء فقط؟! أولئك الأطباء الذين يعملون بتفانٍ كذاك الطبيب الذي أصابه الإعياء من كثر العمل= هل هم الوحيدون الذين يشرفون علىٰ قتل فضول الأطفال؟

تكمن الإجابة في مجموعة من الرمزيات التي نمارسها في حياتنا الواقعية نحن كأُسَر لهؤلاء الطلاب كثيرًا -وخاصة في الجلسات العائلية- نجد فلانا يتفاخر ويقول: أريد أن يخرج ابني ليصبح طبيبًا أو مهندسًا، بل نجد من الأهل من يحمل همّ تعليم ابنه الجامعي مع مجرد قدوم الطفل إلىٰ هذه الدنيا، وبهذه الرمزية الأولىٰ نحن نشارك المعلمين دور المراقبة التامة لنضمن قتل فضول الطفل منذ البداية. يراجع الكلام عن قتل الفضول في صفحة.

نشارك نحن أيضًا دور الأطباء هنا! بأن نرفع من شأن كل من رفعه التعليم النظامي بمجرد أنه مُنح شهادة عليا، فالطبيب هو

(١) Creative Schools: The Grassroots Revolution That's Transforming Education, by Ken robinson, soft copy, p.12

مؤهل لأن يسود الناس اجتماعيًّا وهو مستشار أسري، وهو الذي يُصلح أحوال الأمة، أمَّا المهندسون فهم عماد الدول وعماد النفوس، فمجرد معرفة أن الرجل من أهل الهندسة فهو أعلم من غيره وأعرف عمومًا، وهذا التعميم كم أورثنا من المشاكل، فهناك مؤشرات واضحة أنَّ كثيرًا من المهندسين هم من شكلوا بذر التطرف في المجتمعات، وكثير من الحركات الاجتماعية وخاصة الإسلامية كان الناس يُقيِّمُون بعضهم بناء علىٰ هذه الشهادة، فإن كان فلان لديه مؤهل الدكتور في الفيزياء؛ فهو مؤهل لقيادة الناس، بل حتىٰ مؤهل لقيادة الدولة التي تحتاج إلىٰ علم سياسي جامعي واسع تفتقده جل دولنا.

إذن! ليس المعلمون فقط هم من يشارك في قتل روح الطلاب نحو التعلم، بل العائلة وهي أول الأحجار الصلبة التي تُضع أمام الطلاب لتقتل فضوله، ثم تكمل المدرسة المشوار في عملية سلخ فضول الطلاب في مسلخة منظمة وأنيقة تسمىٰ المدرسة.

من المسلخِ إلى العبوديّةِ

في القرن التاسع عشر (عصر الثورة الصناعية) كثير من أفراد الطبقة المتوسطة أرسلوا أبناءهم إلىٰ المدارس العامة، وذلك طمعًا في فرص عمل جديدة[1].

ونستطيع أن نطور هذا المفهوم فيما طرحه الدكتور الطيب بوعزة في كتابه نقد الليبرالية، حيث كان طرحه يشير إلىٰ أن تحرير العبيد في أول القرن التاسع عشر كان بسبب الحاجة إلىٰ الأيدي العاملة -كما ذكرنا في المدخل التاريخي عن روكلفر-، ومن هنا انتقل مفهوم العبودية من مفهوم اجتماعي بيتي إلىٰ مفهوم صناعي تصبح فيه الأيدي العاملة عبارة عن الترس التي تشغل بها آلات المصانع، أو هي كالرحىٰ التي يتم طحنها عبر طواحين النظام الاقتصادي.

إذا سألنا هنا ما علاقة هذا الكلام بنظام المدرسة؟

---

(١) «**مصر بلا مدارس**»، وفاء بسيوني المكتبة العصرية، (ص/٣٠)، نقلا عن الدراسة التالية:

Jan A. Avner, Home schooners: A forgotten clienteد, school library journal, 7.3t, N. 11 (july 1898) : p30.

العلاقة أو الرمزية في ظني أنها في غاية الوضوح:

فإن النظام المدرسي خير من ينقل مفاهيم المصنع لقاعة الصف، ففي المدارس ذات القيمة المرتفعة في الترتيب العالمي يُحَاوَلُ توجيه الطالب إلىٰ العمل المصنعي ومؤخرًا تحول مفهوم المصنع؛ ليصبح أشمل فدخلنا لمصطلح الوظيفة الذي سماه العقاد: رق القرن العشرين.

ويخبرنا كين روبنسون أنَّ نظام القرن التاسع عشر تطور في جزء كبير منه ليقابل حاجة العمل لمواكبة الثورة الصناعية وتنظيمها بناءً علىٰ مبادئ الإنتاج العام، وكان المعيار الأساسي يركز علىٰ جعل النظام أكثر كفاءة وأكثر قابلية للحساب، والمشكلة كما يراها روبنسون في هذا النظام أنه غير ملائم بشكل كلي مع الظروف المختلفة للقرن الواحد والعشرين[١].

ويخبرنا الناقد الاجتماعي بنس بما يخبرنا به روبنسن، حيث يقول: أمَّا المدارس فتعلم المعرفة الميتة والانفصال عن الواقع، وتغليف الواقع[٢].

---

(١) Creative Schools: The Grassroots Revolution That's Transforming Education, by Ken robinson, soft copy, p.12.

(٢) مصر بلا مدارس، وفاء بسيوني المكتبة العصرية، (ص/٣٠)، نقلا عن الدراسة التالية:

David Skinner "libertarian liberals: when the left was right" Education next, Vol.s no 4

المدرسةُ والمقاربةُ الطبقيّةُ

يحذر ريمر بأنَّ وضع المدارس والجامعات هو كحراس علىٰ أبواب مجتمعات طبقية، وأن التعليم حقيقته عملية سيطرة حضارية[1].

فريمر ينتقد المدارس هنا من ناحية ماركسية، حيث يرىٰ أنَّ المدارس تكرس الطبقية، وهذا في عصرنا واضح، فلكَ أن تتخيل علىٰ المستوىٰ النفسي والشعوري بين طالب المدارس الحكومية وطلاب المدارس الخاصة، وتزيد الفجوة مع مدارس التعليم الدولي التي تتخذ اللغة الإنجليزية لغةً للتعليم ولا يختبر الطالب حسب نظام الاختبارات الذي تضعه بلاده، بل يختبر حسب النظام الأمريكي أو البريطاني، وهذا النقد الماركسي حق للنظام المدرسي، إلا أنَّ من النماذج القوية والتي استطاعت أن تتجنب هذا النقد هي المدارس الفنلندية، ففي فنلندا التعليم للجميع بنفس المستوىٰ؛ لأنَّ التعليم الحكومي يصعب جدًّا منافسته، أو لِنَقُل

(١) مصر بلا مدارس، وفاء بسيوني المكتبة العصرية، (ص/٣٠)، نقلا عن الدراسة التالية: محمد نبيل نوفل، «**دراسات في الفكر التربوي العربي**»، القاهرة؛ كلية التربية جامعه عين شمس، (١٩٨٥م)، (ص/١٥٩).

لا يمكن منافسته، وعلىٰ المستوىٰ الدوليّ لا يحتاج الطلابُ الفنلنديون أخذ نظام آخر؛ لأنهم يتربعون علىٰ عرش التعليم النظامي، والغريب أنَّ هذا التعليم المتاح للجميع دخله تنوع هائل كما سنرىٰ عند الحديث عن التجربة الفنلندية.

ويمكن تطوير هذه الأداة الماركسية في فهم: إلىٰ أين وصل العلم الآن في الطبقية بفهم الأنموذج، فالعلم مع الهيكل التنظيمي الذي يؤطر له طريقه أصبح يصنع طبقةً من العلماء الذين يتحكمون في سير العملية العلمية، وهذا ما أسماه توماس كون بالأنموذج (paradigm)، حيث يبدأ العلم مع هذا الأنموذج من «خلال مجموعة من النماذج العقلية الموضوعة مسبقًا، والتي تحدد المشاكل التي يجب طرحها والتي لا يمكن طرحها»، فالعلم عند[1] كون ليس ينبع من المشكلات، بل من النماذج التي توجه الأنظار نحو اتجاه معين، وإن أردنا أمثلة علىٰ ذلك؛ فإنَّها كثيرة ومن أشهرها ما حصل مع كل من يرفض نظرية التطور في المجتمع العلمي حيث حصل لهم طرد من وظائفهم، وتم رفض أبحاثهم بناء علىٰ سلطة مراجعة الأقران= فهنا أصبح العلم سلاحًا موجهًا ضد أي نموذج فكري مخالف لما يتفق عليه واضعوا هذا النموذج.

ولا يتوقف الأمر علىٰ ذلك، بل إنَّ طبقة العلماء أصبح لهم مزايا مادية منقطعة النظير ممَّا يمنحهم سلطة ثقافية وطبقية عالية، بل

---

(١) «**الوجه الآخر للعلم، احتواء العلم في المجتمعات الحديثة**»، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولىٰ، (ص/٤٠).

حتىٰ إنَّ الأمر وصل إلىٰ أنَّ بعض الأبحاث تنشر فقط للحصول علىٰ مزيد من المال، وهنا يصنع العلم جزءًا من الطبقية البغيضة التي تمارس قمعها علىٰ غيرها، فقط لأنَّ فلانًا داخل الأنموذج، وتحرم الآخر من الميزات؛ لأنَّه خارجه.

ونستطيع أن نطور هذه الاعتراضات بشكل أعمق من خلال تورط العلم في الاستبداد السياسي، وفي هذا يقول رشيد الحاج صالح:

«إنَّ العلم عامل يزيد من قدرة الأنظمة الاستبدادية علىٰ التحكم في شعوبها، والسيطرة علىٰ أوضاعهم وأحوالهم، حتىٰ إنَّ عددًا من الأنظمة الاستبدادية المشهورة في العالم الحديث قامت أيديولوجيتها وآليات حكمها لشعوبها علىٰ أسس علمية صارمة، استمدتها: إمَّا من العلوم البيولوجية والاقتصادية في مجال الايدولوجيا، وإمَّا من تقنيات العلم الحديث في مجال الاتصالات، والآلات العسكرية، والاستخبارات، فالنازية -مثلا- هي سليلة تطبيق الداروينية في المجال الثقافي، والشيوعية ليست أكثر من تفسيرات خاصة لعلمي الاقتصاد والاجتماع[1].

وليس منَّا من أحدٍ إلَّا ويتذكر تلك القنابل التي هطلت علىٰ هيروشيما ونيازكي، حيث قتلت بسرعة البرق أعدادًا مَهُولةً من البشر.

---

(١) «**الوجه الآخر للعلم، احتواء العلم في المجتمعات الحديثة**»، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولىٰ، (ص/٦٦).

ويبقىٰ السؤال الرئيس: ما علاقة المدرسة بهذه الأمور؛ إذ نتحدث عن العلم؟!

يجيبنا رشيد الحاج صالح: «إنَّ المدرسة تعد من وجهة نظر الغالبية العظمىٰ من الباحثين التربويين والاجتماعيين أهم مؤسسة سياسية مؤثرة في المجتمع علىٰ الإطلاق، فالمدرسة التي يُصنع فيها مستقبل النشء، وهي التي تشكل قيم الأجيال الناشئة وتشذب عقائدهم، كما أنها تتقاسم مع الأسرة مهمة تكوين شخصية الأبناء الاجتماعية وهويتهم، ولذلك نجد أنَّ كلًّا من المؤسسات الدينية والسياسية سعت وتسعىٰ إلىٰ السيطرة عليها وتوجيهها[1].

ولتحليل الأمر بطريقة أكثر وضوحًا إنَّ المدرسة عبارة عن التشكل الأول للأنموذج المعرفي الذي يفرضه العلم، فالذي يريد أن يكون عالمًا لا بُدَّ أن يمر في المرحلة الأولىٰ من مراحل الأنموذج المعرفي= فإن عَبَرَ أُقِرَّ له بأهليته ومارس حياتَه العلمية ضمن هذا الأنموذج، وهنا نفهم علاقة المدرسة مع الأنموذج العلمي، فما علاقتها مع الاستبداد؟

يمكن الإجابة علىٰ سؤال الاستبداد من شقين:

(١) إنَّ المدرسة بطبيعتها -تاريخيًّا كما رأينا، وتنظيميًا كما هو مرسوم لها- ترسخ قيم الاستبداد في نفوس الطلاب، فالنظام

(١) «**الوجه الآخر للعلم، احتواء العلم في المجتمعات الحديثة**»، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولىٰ، (ص/١٠٨).

موحد وهو فوق الجميع ومن الممنوع الاعتراض عليه بالإضافة إلىٰ أنَّ طبيعة المدرسة تميل للعبودية أكثر منها للحرية، قد رأينا روح فيتشه الذي كان من أوائل من دعا إلىٰ المدارس الإلزامية، وقوله: «إن المدارس لا بُدَّ أن تقتل حرية الإرادة في الطلاب».

(٢) الشق الثاني يمكن تأسيسه بين الأنموذج والسياسة، فالأنموذج العلمي ممول أصالة من الدول سياسيًّا، والكثير من الأبحاث الكبيرة كانت مرتبطة باسم جيش من الجيوش، وهذا التمويل له شروطه الضمنية القائمة بين المؤسسة العلمية والمؤسسة السياسية، وبما أن المدرسة هي اللبنة الأولىٰ للأنموذج العلمي؛ فهي داخلة ضمن هذا الاتفاق وتتشكل حسب ما يرىٰ وينفع علميًّا وسياسيًّا، وإن كان ما يتشكل بشكل غير أخلاقي فهذا لا يهم الدولة في الأساس.

مقاربةُ المقهورين

يعتمد مفهوم القهر عند بولو فريري علىٰ مفهوم الأنسنة واللا أنسنة، وما يهمنا الآن مفهوم اللا أنسنة، وهو القائم -عند فريري- علىٰ الصمت الذي يسلب وجود الشخص، تلك الحالة التي يتمتع فيها السالب بأن يسلب حرية غيره، فالمستعمر من أكثر ما يمارسه هو خنق الأصوات؛ ليعلم الشعب المُستعمَر قيمة الصمت التي تسلبه قيمة التعبير، وقيمة الصمت هذه لا تتوقف علىٰ علاقات استعمارية بين الدول، بل قد تمارس علىٰ نطاق واسع في حياتنا:

فالأسرة قد تكون هي تلك العنصر القاتل الذي يمارس قمع صوت أطفاله، فيُنتج مجموعة من الأطفال المقهورين القلقين الذين لا يستطيعوا التعبير عن نفسهم إلا بممارسة العنف علىٰ من تحتهم، كما يمارسه الأب والأم عليهم، وهنا نعود لدراسة مارغريت ميد هايدن التي درست قبيلة المونداوغومر وقبيلة الآرابيش، فوجدت أنَّ الراشدين من قبيلة المنداوغومر يتميزون بالقلق والتوتر والشدة وصرامة القلب، أمَّا أقرانهم من قبيلة الآرابيش فمن صفاتهم الرقة والطيبة والتفاؤل، وعندما بحثت عن طرق تعامل الأطفال فوجدت عند قبيلة المنداوغومر يربىٰ الطفل علىٰ مبدأ العدوانية، ويتم فطامه

فجأة وممنوع أن ينال الرضاعة لفترات طويلة، بل عند الرضاعة لا يسمح له حتىٰ تحريك يده= فنتج ما نتج من سلب لكينونتهم، أما قبائل الآرابيش فالطفل يحظىٰ باهتمام بالغ ولا يعنف علىٰ تبرزه خارج المكان المخصص، ولا يفطم مبكرًا ونتج عن ذلك ما رأيت من وداعتهم.

وفي قراءة ومراجعة الأستاذة زينب الرشيد لكتاب الدكتور علي أسعد وطفة حيث أجمل مجموعة السمات للأطفال الذين يعيشون في ظل عوائل تسلطية فكانت النتائج كالتالي:

(١) إنَّ الأطفال في ظل هذه الأسر يعانون من الخجل والخوف في علاقاتهم مع الآخرين.

(٢) يسعون بكل جهدهم لإرضاء معلميهم ولو علىٰ حساب أنفسهم.

(٣) أغلب علاقاتهم العاطفية تصاب بالإحباط والإخفاق.

(٤) تعاظم شعورهم في القلق والتوتر ومشاعر الإحساس بالذنب.

(٥) يميلون للشعور بالبؤس والشقاء والميل للاتكاء علىٰ الآخرين[١].

---

(١) مراجعة الأستاذة زينب رشيد لكتاب بنية السلطة وإشكالية التسلط التربوي في الوطن العربي، للدكتور علي أسعد وطفة:

http://watfa.net/2015/12/20/974/

وبعد أن تمارس الكثير من الأسر ترسيخ مفهوم الصمت علىٰ أولادهم يأتي دور المدرسة لتمارس دورها في تكميم الطفل كليًّا داخل الصف الذي إذا ألقيت به الإبرة سمعت صوتها، وفي هذه الغرفة الصفية يتم التعليم البنكي، كما يسميه صاحب كتاب «**تعليم المقهورين**»، فيقول: «هكذا أصبح التعليم ضربًا من الإيداع، تحول فيه الطلاب إلىٰ بنوك يقوم الأساتذة فيها بدور المودعين، فلم يعد الأستاذ وسيلة من وسائل المعرفة والاتصال، بل أصبح مصدر بيانات ومودع معلومات ينتظره الطلاب في صبر؛ ليتذكروا ما يقوله ثم يعيدوه. ذلك هو المفهوم البنكي للتعليم»[1].

أمَّا العلاج الذي يقدمه صاحب الكتاب فيكمن في الحوار، حيث لا بُدَّ للمدرس قبل أن يضع في باله كيف سينقل المعلومة والدرس للطالب، لا بُدَّ له من تحديد المواضيع التي يجب أن يناقشها معهم، فينقل للطالب فكرة الحرية، حيث يقرر فريري هنا أنَّ الحرية لا تكتمل إلا اعتمادًا علىٰ المبدأ الحواري الذي لا بُدَّ أن يشكل العلاقة بين الطالب والمدرس؛ لنخرج من ذلك البنك الذي يودع فيه المعلم معلوماته في محفظة الطالب الفارغة فيزيدها فراغًا.

*** تفعيل حل فريري:**

تخبرنا كاترين دينيس أنَّهم استخدموا «أسلوب الحوار لتحديد

---

(١) أولو فريري، «**تعليم المقهورين**»، دار القلم بيروت، (ص/٥١).

المواضيع التي تهم الطلاب، فعلىٰ سبيل المثال كان موضوع التعرض للحرارة الخارجية أثناء النهار من المواضيع التي حازت علىٰ اهتمامهم. بداية، طلبنا منهم وصف شعورهم إزاء تعرضهم لحرارة الجو، ومن ثم ربطنا ملاحظاتهم ببعض المشاكل الصحية مثل الجفاف والحروق الناجمة عن التعرض للشمس التي يمكن أن تسببها الحرارة. انتقلنا بعدها لتعلم الأجزاء المختلفة من جسم الإنسان وشرح عملية الجفاف وأهمية الماء للجسم وكيفية امتصاصه. فكنا نبدأ -علىٰ سبيل المثال- بكلمة (شمس)، ومن ثم نكتب كلمات أخرىٰ تبدأ بحرف (ش)، وكلمات تبدأ بحرف (م)، ثم كلمات تبدأ بحرف (س). وانطلاقا من الكلمات كنا ننتقل إلىٰ الجمل والنصوص البسيطة. فقد أنتجنا نصًّا يمكن للطلاب قراءته وإعادة كتابته والتعامل معه. وبناء علىٰ ذلك تم تصميم الاختبارات، حيث شعر الطلاب لأول مرة بأن الاختبار أمر يمكن اجتيازه لأنَّ المواضيع كانت مألوفة بالنسبة إليهم»[1].

إذن هذه هي فلسفة فريري بكليتها تنطلق من تحرير المقهورين من صمتهم، من إخراجهم من اللا أنسنة إلىٰ الأنسنة، من تحويل تعليمهم من التلقي إلىٰ الحوار الذي هو شرط الحرية التي تمثل روح الإنسان وأعظم سمات الإنسانية.

---

(١) «**تعليم الكبار والتغير الاجتماعي**»، كاترين دينيس، مؤسسة التعاون الدولي للجمعية الألمانية لتعليم الكبار، الأردن (٢٠١٣م)، (ص/٧٦).

الفصلُ الثاني
أطرُ الحلِّ

بعد أن انتهينا من المدخل التاريخي الذي يشكل الذاكرة التي تحملها فكرة المدرسة، وبعد أن خلصنا من المقاربات التي تقرب لنا مفاهيم المدرسة من العبودية وقتل الفضول وحياة المسلخ؛ ننتقل للحلول، حيث يخبرك كين روبينسن لحل إشكالية المدرسة، أنت أمام ثلاث طرق لتصبح عاملًا من عوامل التغير:

(١) تستطيع أن تكون شجاعًا وتخرج خارج النظام كليًّا. (وهنا الخيار الوحيد المعروف حاليًّا هو التعليم المنزلي).

(٢) أو تصلح النظام من الداخل. (حيث ننظر إلىٰ إشكاليات المدارس ونحاول حلها داخليًّا).

(٣) أن تضغط من الداخل لتغير النظام.

سأتناول هذه الخطوات علىٰ الترتيب، فبداية: سنأخذ رحلة علىٰ التعليم المنزلي، ثم سنحاول أن ننظر ما الإمكانية لإصلاحات داخلية لنا كمعلمين أو مشرفين، ونهاية: من خلال القصص والنماذج التي تضغط علىٰ النظام من الداخل لتغيير نفسه ووضعه.

التعليمُ المنزليُّ
وهذا الحلُّ الذي يمثلُ الخروجَ من النظامِ
(الحلُّ الثوريُّ)

قد نصدم الكثير إن قلنا إنَّ التعليم المنزلي هو الأساس التاريخي لعملية التعلم، ففي المجتمعات السابقة التي لم تعرف التعليم النظامي تخرج أجيال وأجيال من زوايا المنزل منهم العلماء والفلاسفة والأطباء وعلماء دين، ومن هؤلاء أفلاطون وتوماس إديسون وليوناردو دافنشي والشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ من قريب، وسنتعرض في نهاية الكتاب لبعض القصص التي تخصص بعض هذه الأسماء الضاربة جذورها في تربة التاريخ، فالتعليم المنزلي ليس بدعًا من القول وليس أمرًا مستغربًا؛ إلَّا أنَّنا مع التعود علىٰ التعليم النظامي والأنظمة الحديثة أصبحنا لا نتخيل غيرها مسوغًا شرعيًّا لعملية الحصول علىٰ وسام التعلم المعترف به.

«تعود بداية حركة التعليم المنزلي إلىٰ العهد الاستعماري في القرن السابع عشر، عند هجرة الأمريكان إلىٰ العالم الجديد وإلىٰ المستعمرات الجديدة، فكان السبيل الوحيد لتعليم الأطفال في

حينها هو المنزل باعتباره ذات مسؤولية إجبارية تلتزم بها العائلات في تلك المستعمرات.

ومما يجب الإشارة إليه: أنَّ في القرن السادس عشر والسابع عشر انتشرت في أوروبا مجموعة من الأفكار والفلسفات التي تدعو إلىٰ دمج الدين في التعليم، كما اهتم كل من اليهود والمسيحيين في ذلك الوقت في التعليم والترابط الأسري وسيطرة الكنيسة حينها علىٰ التعليم؛ وذلك للمحافظة علىٰ هيمنتها ونفوذها، ويكمن دورها هنا في تسهيل عملية القراءة والكتابة، مع بداية القرن التاسع عشر بدأت أمريكا في فرض التعليم الإجباري علىٰ الأطفال وتقبل الناس وقتها فكرة هذا التعليم، بناء علىٰ أنها مؤسسة تعزز جهودهم التربوية.

في القرن العشرين تم تهميش التعليم المنزلي من قبل قوىٰ التحضر وسلطات التهجير والصناعيين، استجابة -كما أشرنا في الفصل السابق- إلىٰ مقاربة العبودية التي حررت العبيد؛ لتصنع منهم عبيدًا جددًا، فكان التعليم المنزلي عبارة عن تمرد لهذا النظام الخانق، فالنتيجة قطعًا= هي التهميش وعدم الاعتراف؛ إلَّا أنَّه في ذلك الوقت نشطت جماعات من فئات رأسمالية وجمهورية ومسيحيين نظروا التعليم النظامي بشكل سلبي باعتبار أنَّ المدارس تهمل الأمور الدينية وتؤسس للعلوم العلمانية كمذهب أساسي في التعليم الرسمي.

إنَّ ظاهرة التعليم المنزلي يمكن تقسيمها في ستينيات القرن

المنصرم إلىٰ حركة اجتماعية وأخرىٰ ثقافية:

أما الحركة الاجتماعية، فكانت تتمثل في تمرد مجموعة من التربويين علىٰ نظام المدارس البائس ومن أهم هذه الرموز جودمان، وإيليتش، وريمرو غيرهم.

فهذا جودمان صاحب كتاب «**سوء التعليم الإلزامي**» يتساءل قائلًا: طالما أنَّ المدارس إلزامية ألا يجب عليها أن تحقق فائدة أبعد من التعليم الإلزامي . . . وكان ملخص فكر جودمان أن الناس يتعلمون من خلال الحياة الواقعية أمَّا المدارس الإلزامية فأبعد ما تكون عن الواقع ومن هنا كان التساؤل حول الفائدة التي هي أبعد عن التعليم الإلزامي»[1].

أما إفان إيليتش فكان يعبر عن نفسه أنه لم يشك مطلقًا في أهمية التعليم النظامي إلىٰ أن فكر مرة في أنَّ حق الإنسان في التعلم مرهون في تعليمه النظامي وهنا كانت بداية الثورة، وهذا يذكرنا بالموقف الذي ذكره شيرمان صاحب كتاب «**الفضول المدرسي**» عندما كان يتناقش مع أحد المهتمين في التعليم وأخبره عن نيته لكتابة كتاب نقدي حول المدرسية، فكان جوابه: أنت لا تحمل شهادة دكتوراه حتىٰ تكتب في هذا الموضوع، فكان رده متهكمًا: كل ما تعلمناه عن المدرسة -نظامها عبوديتها مشاكلها- لم نتعلمه

(١) بتصرف وإضافة «**مصر بلا مدارس**»، وفاء رفعت بسيوني، دار العصرية، الطبعة الأولىٰ، (ص/٢٤ - ٢٩).

من المدرسة، وهكذا حال إيليتش فلم يكتب مجتمعات بلا مدارس إلا بعد أن فكر تفكيرًا لا تخبره به المدرسة ومتضمنًا في: هل يتعلق التعليم وحق الإنسان في التعلم في نظام المدرسة فقط؟

لا يمكن للنظام المدرسي أن يحدد ويقيم معايره من الداخل وهنا استعين بمقولة من مقولات فتجنشتاين الفلسفية حيث يقول «العمليات الداخلية تحتاج معايير خارجية»[1]، أي إنَّ النظام من الداخل لا يبصر نفسه وإذا أبصر نفسه خرج فعليًّا من النظام إلىٰ نظام أعلىٰ يتمثل في النقد، وهذا ما حصل مع إيليتش في السؤال الذي طرحه علىٰ نفسه حيث خرج من حتمية التفكير النظامي للمدرسة لمسألة هذا النظام فكانت الشرارة.

وينطلق نقد إيليتش من هذا الباب حيث يرىٰ أنَّ النظام المدرسي حوّل الحاجة الطبيعية للتعلم إلىٰ عنصر استهلاكي نستهلك فيه الأفراد في سوق الدولة، فالمدارس عند إيليتش تحاول أن تحافظ علىٰ السائد في المجتمع فإن كان خيرًا فخير وإن كان شرًّا فخير أيضًا!

وفكرة حصر التعليم في المدرسة تؤدي في البداية إلىٰ تجاهل كل ما يتم تعلّمه خارج المدرسة، فلو أنَّ شخصًا مميزًا في الجانب الحاسوبي أو الرياضي وليس حاصلًا علىٰ قطعة الورق التي هي

(١) «**طتجنشتاين**»، هانس سلوجا، ترجمة د. صلاح إسماعيل، المركز القومي للترجمة، (٢٠١٤م).

الشهادة؛ فلا حق له لممارسة خبرته وتميزه الذَينِ تحصل عليهما من حياته الواقعية الخارجة عن المدرسة؛ فيتم حصر التعليم داخل أسوار المدرسة بدل أن تكون المدرسة جزءًا من عملية التعليم ككل وأداة من أدواته، فتحولت من أن تكون مساعد لعملية التعليم إلىٰ محددة لنطاقه وماذا يجب أن يُتعلم وما لا يجب.

إذن السلسلة تكون في تكميم التعليم وسجنه داخل أطوار المدرسة، ثم ننتقل إلىٰ عملية تهميش الخارج فخارج هذه الأسوار لا مكان للتعليم أو للدمج في المجتمع، ثم يتكون نخب وسلاطين للتعليم تحت أسماء الدكتور ونخب لها حق الكلام، فقد تكون ملمًا في موضوع معين أكثر من شخص حامل لشهادة دكتوراه ولكن المجتمع يفرض عليك أن تسمع لصاحب شهادة الدكتوراه؛ لأنَّه هو المعترف به فعليًّا؛ ومن هذا ظهرت مقاربات كثيرة بعد إيليتش تقيس هذه السلطة التي تبدأ في المدرسة مع المعلم وتنتهي في مراجعة الأقران الذين يتحكمون في سير العملية البحثية.

ومن المداخل الأخرىٰ لنقد إيليتش مدخل الطبقية فالأصل في التعليم النظامي أن يدعو إلىٰ المساواة، لكن ما أفرزته هذه المدارس والجامعات هي عبارة عن طبقية مفرطة، فتجد -مثلًا- في مصر حاليًّا أنَّ حدود الزواج وحتىٰ العلاقات تخضع لكليات القمة كالطب وغيرها، فرمزية القمة هنا رمزية طبقية تساعد علىٰ شروخ المجتمعات ولا تساعد علىٰ تجانسها.

ثم يعمم إيليتش نقده للمؤسساتية فيرىٰ أن المؤسسات خنقت

روح الفرد بحيث لا يستطيع النفاذ والخروج من سيطرتها، وكأنها مقاربة أشبه بتنين هوبز المتغلغل في حياة الناس وما أجنحة تنين هوبز إلا المؤسسات التي تخنق الأفراد ومن ضمن أهم هذه المؤسسات هي المؤسسة التعليمية.

أما الافتراضات التي يراها إيليتش خاطئة وبُنيت عليها فكرة المدرسة:

(١) القاعدة العمرية حيث تفترض المدرسة أنَّ علىٰ الطفل في سن معين أن يذهب للتعليم الإلزامي، وهذا الافتراض مغلوط حيث إنَّ الطفل في حياته الأولىٰ يلعب ويستكشف البيئة بحرية، وعندما يتم توجيهه لا يتم توجيهه مرة واحدة بل تدريجيًّا؛ وهذا نستشفه في قوله -عليه الصلاة والسلام- في الحديث الذي صححه الترمذي: «علِّمُوا أولادكم الصلاة إذا بلغوا سبعًا، واضربوهم عليها إذا بلغوا عشرًا، وفرِّقُوا بينهم في المضاجع».

(٢) الافتراض الثاني يقوم عند إيليتش علىٰ أنَّ المدرسة تفترض أنَّ من يدخلها من الضروري أن يتحصَّل علىٰ معرفة، مع أنَّ هذا ليس شرطًا، فكثير منَّا دخل المدرسة وخرج منها دون أن يتعلم قيمًا حقيقيةً للعلم، بل علىٰ العكس قد نخرج مشوهين، وهو الأغلب!

ولم يختلف ريمر عن إيليتش «حيث حذر أنَّ المدارس والجامعات عبارة عن حراس علىٰ الطبقية، كما ذكرنا في المقاربة الطبقية، ويدخل جون جولت الحرب في كتابه المدارس غير

الناجحة ليقول: إنَّ المدارس عبارة عن درس طويل في كيفية التحول إلىٰ إنسان منغلق، ختامًا في هولت الذي دعىٰ صراحة للتعليم المنزلي وكتب «كيف يفشل الأطفال؟»، حيث يشير إلىٰ أفضلية التعليم المنزلي علىٰ التعليم المدرسي»[1].

تندمج مع الحركة الاجتماعية الحركة الثقافية والتي تشكّلت من المنظمات والمؤسسات المسيحية والأشخاص الذين لهم تحفظات أخلاقية علىٰ النظام المدرسي مع تواجد العائلات التي تمتلك أيدولوجيا قوية بأنَّه ليس من الحق والعدالة ترك مسؤولية تربية أطفالهم لأشخاص غير مؤهلين، يضاف إلىٰ ذلك بعض الملحدين والأمريكان الأفارقة، والطبقة الوسطىٰ والأسر ذات الدخل المحدود كل هؤلاء شكلوا العصب الأساس لإعادة القيمة للتعليم المنزلي بعد أن فقد قيمته في دولة المؤسسات[2].

---

(١) «**مصر بلا مدارس**»، وفاء رفعت بسيوني، دار العصرية، الطبعة الأولىٰ، (ص/٣٠، ٣١).

(٢) بتصرف «**مصر بلا مدارس**»، وفاء رفعت بسيوني، دار العصرية، الطبعة الأولىٰ، (ص/٣٠، ٣٣).

أسبابُ التوجّهِ للتعليمِ المنزليِّ

*** تتنوع الأسباب التي قد تجبر الأهل علىٰ اتخاذ قرار التعليم المنزلي ويمكن إجمالها في التالي:**

(١) قد يكون الطفل يعاني من مرض معين أو من صعوبة من صعوبات التعلم، فيتجه الوالدان نحو تعليمه الذاتي.

(٢) قد يعتقد الوالدان أنَّ بمقدورهم إعطاء طفلهم تعليمًا مميزا أفضل ممَّا يمكن أن يتعلمه من المدرسة، وهذا السبب يحتاج إلىٰ شرط أساسي وهو: أن يكون الوالدان وبالذات الأم علىٰ قدر عالٍ من المعرفة والتعليم وعلىٰ معرفة قوية من أساليب ومناهج التعليم حتىٰ يستطيع -تستطيع- إعطاء طفلهم حاجته من التعليم.

(٣) كثير من الذين اتجهوا إلىٰ التعليم المنزلي كانوا لا يريدون أن يخضع أبناؤهم لأيديولوجية الدولة، فعلىٰ سبيل المثال قد يتجه اشتراكي في أمريكا إلىٰ تعليم ابنه منزليًّا؛ لأنَّه مناهض للرأسمالية، وقد يتجه مسلم إلىٰ التعليم المنزل ليجنب أولاده التعليم العلماني.

(٤) أو قد يرىٰ الوالدان أن التعليم الديني مهمل في المدارس

النظامية فيتجهون إلىٰ التعليم المنزلي الذي يضمن حصصًا دينية ومشاركة دينية مع المسجد أو الكنيسة.

(٥) ويتجه الكثير نحو التعليم المنزلي؛ لأنَّ المدرسة بنظرهم تضعف قيم العائلية بشكل خاص والقيم الأخلاقية بشكل عام، فالمدرسة تدعو الطلاب إلىٰ الانفلات الأخلاقي في نظر من يتجه إلىٰ التعليم المنزلي، بالإضافة أن التعليم المنزلي يعطي الآباء ميزة الحفاظ علىٰ الحد المقبول من الأخلاق الذي يرغبون به من أبنائهم.

(٦) لا يقتصر التوجه للتعليم المنزلي علىٰ الأسر الذين يعاني أبناؤهم من صعوبات التعلم، بل قد يتجه أولئك الذين يرون في أولادهم جانب تميز، فيرفضون منهج المدارس الذي من أهم عيوبه عدم مراعاة الفروق الفردية بين الطلاب، وإخضاعهم لمنهج دراسي واحد وطريقة متشابهة للاختبار= فلا يأخذ الطالب الموهوب حقه في هذا النظام الثابت والذي يفقد روح المرونة ويطفئ جذوة الإبداع.

(٧) وقد يتجه الآباء إلىٰ التعليم المنزلي لأسباب ترتبط بسوء المدارس الإلزامية، فكما «يشير جوردر أنَّ المدارس العامة ما زالت مؤسسة جامعة للمشكلات، وأنَّ الفصول الدراسية تعمل علىٰ تطوير الأفراد بشكل سلبي، وأن العالم الحقيقي يختلف عن العالم الداخلي للمدرسة، واعتبرت الدراسة أنَّ المدارس جامدة صلبة،

لا تستجيب لمتغيرات المجتمع»[1].

*** ميزات التعليم المنزلي:**

(١) إعادة التوازن:

والمقصود بإعادة التوازن هو إعادة شكل المنزل إلىٰ طبيعته، فمنذ أن بدأ التعليم النظامي وكأن الأهل تم إفهامهم أن مهمة البيت انتهت، وعضدت هذه الفكرة الإنهاك الحاصل للأسر بسبب سعيهم لتأمين متطلبات الحياة، فلا يستطيع الأب والأم إلا العمل لتأمين حاجات أطفالهم، وإن كان من فائدة مباشرة لطرح مفهوم التعليم المنزلي هو الانتقال لمفهوم أعمق وهو مفهوم البيت المنزلي= فهذا كافٍ؛ ولهذا لا بُدَّ للآباء والأمهات أن يجلسوا ويعيدوا برمجة فلسفة حياتهم من خلال تحديد ما هي طبيعة الحياة الكريمة التي لا تعتمد علىٰ السوق والإنهاك الشرائي التي نستطيع العيش فيها لنؤمن لهم أُمًّا متفرغة لهم ولتعليمهم= فهذه الفائدة الأولىٰ وهي إعادة طرح فلسفة البيت وتوازنه للطرح العام.

(٢) التعليم المنزلي أبعد من كونه مدرسة وإنما أسلوب حياة:

إنَّ الطريقة الطبيعية للتعليم هي البيئة الأسرية فهي الأساس؛

---

(١) «**مصر بلا مدارس**»، وفاء بسيوني المكتبة العصرية، (ص/٣٢)، نقلًا عن الدراسة التالية:

Andrew S Latham "Research link: Home Schooling", Vol. 56, (May,1998) : P.5-16

وعليه بإعادتنا التعليم للمنزل؛ فإنَّنا نرجعه -تقريبًا- إلىٰ الحياة، ففي المنزل هناك تفاعل حياتي بين مشكلة وحل، ونزاع وفكه، واستمتاع وضيق، فالطفل الذي يتعلم منزليًّا أقرب للحياة ومشاكلها وتفاعلها من طفل المدرسة، ولهذا بعد أكبر من التعليم نفسه! حيث إنَّ هذا التعلم الذي يحدث داخل الأسرة يخلق سياقات جديدة للأسر، فلا تشعر بالملل الذي تشعر به الأسر التي تضع أطفالها في المدارس النظامية وقت العطل والذي يسبب لها المشاكل الكثيرة؛ لأنَّ البيت لم يتعود علىٰ تواجد الأطفال في هذا الوقت.

(٣) التعلم يكون فردًا لفرد:

من أكبر الإشكالات التي تعرض لها نقاد التعليم النظامي هي كثرة عدد الطلاب، وسنتعرض لها لاحقًا مع بعض أطر الحل التي اتخذتها فنلندا واتخذها سلمان خان، لكن هذا الحل الثوري يعتمد في الأساس علىٰ المنزل والمفترض أن هذا التعليم يحصل فردا لفرد حتىٰ وإن كان عدد أفراد الأسرة أكثر من واحد، فتركيز المعلم (الأب أو الأم أو حتىٰ معلم خارجي) يكون منصبًا علىٰ فردٍ واحد، فيستطيع أن يضع معه البرنامج الذي يريح الطرفين، ويمكن تعديل المنهاج ببساطة، علىٰ عكس ما لو كان عندك عدد كثير من الطلاب في تسلسل هرمي صلب أكثر ما يثمره هو التعارضات التي تحتاج ربما إلىٰ أسابيع لحلها كما يحدث هذا في كليتنا كل سنة.

(٤) بيئة التعليم في المنزل بيئة أكثر أمنًا وأمانًا:

*** يتكون عنصر الأمن من ثلاث مراتب:**

(أ) البيئة والأثاث المحيط: إنَّ بيئة المنزل بيئة تتمتع بنوع من الأمان علىٰ مستوىٰ الأثاث، فهناك المراتب المريحة والمخدات ومناطق الراحة، علىٰ عكس المدارس التي يكون المقعد فيها هو العلاقة الصلبة بين الطفل والغرفة الصفية.

(ب) من حيث البيئة الخارجية في المدرسة ولكثرة عدد الطلاب يصعب التركيز علىٰ من يتفلت منهم، وكم من مرة نذكر الهروب من المدرسة والقفز من أسوارها فقط للهروب إلىٰ الحياة الطبيعية التي نرسمها خارج الأسوار، أما في البيت فلأن عدد الأطفال محصور فيمكن السيطرة علىٰ تحركهم وإغلاق الأبواب أو فتحها بناءً علىٰ النشاط الذي تقوم به العائلة في ذلك الوقت.

(ج) من حيث العنف المعنوي فالمدارس يكثر فيها المخدرات والاستغلال الجنسي ومعايرة الأقران وترهيب الأطفال، وكل هذا نستطيع تجنبه في التعليم المنزلي.

(٥) الكفاءة في استغلال الوقت:

حيث إنَّ طلاب التعليم المنزلي أمامهم اليوم كاملًا لإنجاز الأنشطة التي تتخلل عملية التعليم، فيمكنه أن يأخذ قسطًا من الراحة متىٰ أراد ويعود متىٰ أراد، بل هذه الآلية المرنة تتيح لطلاب التعليم المنزلي القدرة علىٰ إنجاز أعمالهم بوقت أقل.

(٦) التخصصية:

يستطيع الآباء أو من يعلم الطالب حل الإشكالات التي تواجهه بشكل تخصصي وفي نهاية الكتاب سنرىٰ كيف كانت قصة سلمان خان مع نادية هي عبارة عن تعليم تخصصي أفرز فيما بعد خان أكاديمي، فنستطيع -مثلًا- لو ظهر مفهوم جديد في العلوم أن ندخله للطلاب دون كم كبير من اللجان التي تحتاج إلىٰ عشرين اجتماع حتىٰ تقرر وجود هذا المفهوم في الحياة الواقعية، ونستطيع التركيز علىٰ ما يميز الأبناء، فمن لديه ميزة الأدب نوجهه لذلك بزيادة التركيز عليها ومن هو مولع في الرياضيات نكثف من مواد الرياضيات التي يدرسها وهكذا حتىٰ يؤدي التركيز إلىٰ تمييز الطالب عن غيره.

(٧) يعتبر التعليم المنزلي أقل تكلفة من التعليم النظامي في العموم.

(٨) الحرية في غرس القيم والأخلاق التي تفتقدها المدرسة، فبدلا من أن يعطىٰ الطلاب القيم السلبية نعوضهم بالقيم الإيجابية والتي تبني الأخلاق ولا تدمرها.

(٩) «أما فيما يخص المقارنة الأكاديمية بين طلاب المدارس وطلاب التعليم المنزلي؛ فتشير جمعية الدفاع القانوني عن التعليم المنزلي (HSLDA) في بحث لها علىٰ عشرين ألف من طلاب التعليم المنزلي، فوجد البحث أن طلاب التعليم المنزلي أفضل من

طلاب التعليم النظامي حسب مقاييس التحصيل العلمي الوطنية في الولايات المتحدة»[1].

*** أهم النقود الموجهة للتعليم المنزلي:**

حتىٰ نطرح الصورة بشكل عادل لا بُدَّ أن نتعرض لأهم النقود التي وجهت للتعليم المنزلي ونبين مناطق الاتفاق أو الاختلاف معها.

(١) البيئة الاجتماعية:

إن كان من سبب أراه وجيهًا في عدم إبعاد الطالب عن المدرسة هو أنَّ المدرسة عبارة عن سياق اجتماعي كلي في هذا العصر، فنحن نعلم أنَّ اللغة تتشكل اجتماعيًّا من خلال مجموعة من القواعد التي تحكم بيئة اجتماعية معينة، ففي المجمل إنَّ الطفل يفقد جزءًا لا بأس به من هذه الألفاظ السياقية نتيجة غيابه عن هذه البيئة الصعبة، وتوابع هذا الغياب سيجده الطالب عندما يعود إلىٰ بيئة العمل التي هي فرع مؤسسي آخر يحتوي علىٰ تصارع ربما أعنف من الذي يحصل في المدرسة.

مؤيدو التعليم المنزلي يقولون: إنَّ الأطفال يتمتعون ببيئات اجتماعية خصبة في أسرهم بالإضافة إلىٰ إمكانية التنسيق بين الأسر

---

(١) «**مصر بلا مدارس**»، وفاء البسيوني، العصرية للنشر والتوزيع، (ص/٥٤) نقلًا عن دراسة:

Brad miser, A Absolute beginner's guide to home schooling, op.cit, p.12

للمشاركة في مجموعة نشاط اجتماعية لعوائل التعليم المنزلي، عن طريق مهرجان أو زيارة متحف أو حضور فلم سينمائي هادف، وكل هذا لا غبار عليه إلَّا أن أصل النقد هو سياقي في المقام الأول، حيث إنَّ المدرسة هي جزء من منظومة متكاملة من سوق العمل وما شابه= فمهما كان نقدنا وكرهنا لها إلَّا أن التخلي عنها كليًّا مغامرة غير محسوبة العواقب، فسؤال الجامعة سيحضر لأنَّ بعض الجامعات تضع اختبارات في غاية الصعوبة لقبول طلاب التعليم المنزلي والبعض الآخر يرفض، بالإضافة إلىٰ أنَّ سوق العمل يتطلب هذه الورقة الكرتونية، بل حتىٰ الزواج أضحىٰ خاضعًا لهذه المعارك فعندما تذهب لخطبة إحداهن فمن أوائل الأسئلة= ما هي دراستك.

(٢) إضعاف روح المواطنة:

وهذه حجة في الأساس هرب منها طلاب التعليم المنزلي أساسًا، حيث يرون أنَّ الدولة تحاول إخضاع أولادهم وإضاعة خيراتهم، فلا بُدَّ هنا من تحرير مفهوم المواطنة الذي يحاسب عليه من يتخذ التعليم المنزلي سياقًا له، فهذا استدلال في محل النزاع في لا يصح.

(٣) فقدان الأدوات:

كما قلنا في الأسباب التي تدفع الناس للتعليم المنزلي هو وجود أولاد من ذوي الاحتياجات الخاصة، وتأمين هذه المواد

لكل عائلة في غاية الصعوبة، فلك أن تتخيل لطلاب التوحد -مثلًا- أن غرفة التكامل الحسي قد تكلف مبلغًا يقارب (١٠,٠٠٠ دولار) أو أكثر، وصحيح أنَّ الأهالي قد يستخدمون الحلول الإبداعية لابتكار مثل هذه البيئة؛ إلَّا أنَّها مكلفة جدًّا بالنسبة لهم وتحتاج لجهود كبيرة لتأمينها لهؤلاء الأطفال.

(٤) نقص تعليم الأقران (peer education):

صحيح أنَّ التعليم من الكبار هو أمر تهمله المدرسة إلَّا أنّه تتيح التعليم مع الأقران، فالطفل يميل لمن هو قريب من عمره ينضج ويتعلم بشكل أسرع لتشابه الاهتمامات وتطورها وهذا لا يتيحه مجملا التعليم المنزلي الذي يعتمد علىٰ الفردية في الأساس.

وتبقىٰ نقطة أخيرة في البلدان العربية هي أنَّه لا يوجد دولة تعترف بالتعليم المنزلي؛ لهذا لا ينصح بالاعتماد عليه وحده؛ لأنَّنا سنخرج الطفل كليًّا من سياق حياته، وسيفقد الكثير من حقوقه القانونية، فلن يستطيع إكمال حياته الجامعية ولا البحث عن وظيفة إن أراد، ويمتد الأمر كذلك إلىٰ أن المجتمع سيرفضه؛ لأنَّ المجتمع لم يشكل بعد مفهوما عن التعليم المنزلي في الأصل، وما هذه الصرخات إلىٰ إرهاصات نرجو من الله أن يكون لها صداها ليستفيق الآباء نحو أولادهم، وقد كانت ليبيا الوحيدة التي تقر التعليم المنزلي من باب أنَّها جمهورية وللجماهير فتعطيهم هذا الحق، وأمريكا وغيرها تقبل به قانونًا، لكن تتابع الآباء حتىٰ تضمن

حق الأبناء علىٰ الأقل في التعلم.

ولمن أراد الاستزادة خصيصًا في التعليم المنزلي؛ فعليه بكتاب الأستاذة وفاء بسيوني، فهو يدرس الظاهرة حصرًا وبشكل تفصيلي، وليس كهذا الكتاب الذي يطرح أغلب الإشكالات بالعموم، ويتناول أغلب الحلول التي تعرضت لهذه الإشكالات.

*** أهم الفروق بين التعليم النظامي والتعليم المنزلي مجدولة:**

أختم بالجدول الذي كتبته الأستاذة نجوىٰ يوسف تبين فيه ملامح الفروق بين التعليم المنزلي والتعليم المدرسي، والذي نقلته عنها الأستاذة وفاء بسيوني في بحثها المهم «**مصر بلا مدارس**»، وهذا الجدول هو زبدة الفرق بين التعليمين تقريبا.

التعليم المدرسي	التعليم المنزلي
* تعليم نظامي، ويمارس به التعليم اللَّا نظامي بقدر ضئيل في التعليم. * نشأ نتيجة دوافع تنظيمية -مؤسسية- عملية، (مثل إخراج المرأة للعمل). * يتمركز حول المعلم. * جدول ثابت. * يحدد المنهج عِلِّية التدريس والتعليم، وتبنىٰ المقررات بشكل	* التعليم غير نظامي يتم في المنزل، والتعليم النظامي يمارس داخل المنزل لساعة أو ساعتين يوميًّا وغالبا ما يكون في الصباح. * ظهر لأسباب دينية أو فلسفية وتعليمية. * التمركز حول الطالب. * لا يشترط وجود مكان محدد. * لا يشترط وجود جدول منطقي،

وخطوات مبسطة؛ لتيسير عملية التعليم وتكون مهمة الطالب متابعة سلسلة تعلم، ثم وضعها مسبقًا، (منطق المنهج). * تطرح الأسئلة عن طريق المعلم؛ ليتم الإجابة عليها في الفصل أو تمرينات وواجبات أو امتحان نهائي، (المعلم يطرح الأسئلة)، والإجابة مفروضة علىٰ الطالب. * الاعتماد علىٰ التمرينات والاختبارات كدليل لمعرفة تقدم الطفل في الدراسة وتقديم تغذية راجع له. * تعتمد علىٰ الدرجات. * الانتقال منطقي من موضوع إلىٰ آخر، مناهج تفصيليّة متسلسلة بدقة. * التعلم من المعلم، الذي يشترط لتعيينه ضرورة الحصول علىٰ مؤهلات جامعية قبل	دراسي مرونة في التوقيت، وفقًا لظروف الطفل واهتماماته. * تقدم الدروس حسب حاجات الطفل إليها، (منطق الطفل) يحدد التعلم بواسطة تفاعل ديناميكي معتمدًا علىٰ اهتمامات الطفل ودوافعه وحب الاستطلاع والتحدّي، وتتمثل المعرفة الجديدة عندما تساعد علىٰ توسيع معرفته الحالية، كما أن التعلم العرضي تعلم غير خطي يتم علىٰ أساس منطق خاص لكل طفل. * سياق التعلم ضمن الحياة اليومية عن طريق تواجد الطفل مع أسرته والتحدث المستمر معها والجدل وطرح الأسئلة بشكل مسامر ولا نهاية وبما يقدم معلومات وثيقة الصلة بالنمو في الثقافة التي يعيش فيها الطفل. * الاعتماد علىٰ التمرينات

الخدمة؛ وتدريب مستمر في أثناء الخدمة لمتابعة التطور المستمر في المجال. * الفردية. * الأعمال الكتابية هي دليل التعليم والتحصيل. * الفرص للتعلم في المجموعات والأنشطة الاجتماعية محدودة مثل الدراما ولألعاب الرياضية.	والاختبارات ليس شرطًا ضروريًّا بالمنزل؛ لأنَّ الوالدين يعرفان أين موقع الابن ولا يحتاجان إلىٰ التأكد ممَّا تعلمه، ويتم تقويم كل الصعوبات علاجها بشكل فوري فور حدوثها، فالتعليم المنزلي عملية تفاعلية إلىٰ حدٍّ كبير. * الدرجات غير ضرورية في التعليم المنزلي. * حوار اجتماعي طبيعي، لا يتبع منطق التسلسل الخطي ومن خلال ممارسة أنشطة الحياة اليومية: مثل المشاركة في الأعمال المنزلية - القراءة الحرة - متابعة اهتمامات خاصة - استخدام الكمبيوتر فكلها تهيئ فرصًا ثرية للتعلم ودروس الحقيقة. * التعليم من الآخرين الأكثر خبرة ولا يشترط المؤهل التربوي، لا يحتاج الوالدان

	لأي تأهيل أو تدريس لتقديم تعليم كفء لأطفالهم ولكن يتوقع منهم الالتزام بتعليم ملائم لأطفالهم[1]. * الأعمال الكتابية غير مهمة، الوالدان يعرفان بشكل عام مستوىٰ التعليم الذي يصل إليه الأطفال. * قائمة علىٰ التعليم الذاتي والفردي وهو أساس التعليم المنزلي. * الفرص متاحة والطفل حر ومؤهل لكي يكون مبدعًا.

*** الإصلاح المدرسي من الداخل (وهذا يمثل الحل الثاني):**

مع كل ما ذكرناه عن النظام المدرسي إلَّا أنَّ عددَ المعلمين الذين يرومون الإصلاح عدد كبير، ولا يمكن أن يترك هؤلاء دون فهم لأهم الإشكالات الداخلية التي تعاني منها المدرسة، وطريقة حلها، في هذا الفصل تعرضت لكثير من الإشكالات التي تحصل

(١) في هذه النقطة يخالف الكثير الأستاذة فالكثير من أنصار التعليم المنزلي يرون أن علىٰ أحد الوالدين أن يكون حاصلا علىٰ تعليم مرتفع جدا، بالإضافة إلىٰ أن الدول التي تقر التعليم المنزلي تعمل اختبارات للآباء والأولاد.

داخل المدرسة وتنفر الطلاب، بل والمدرسين منها، ثم طرحت حلولًا ممَّا قرأت ومن خبرتي في التدريس التي قوامها سبع أعوام كاملات، وأضفت إلىٰ ذلك ضرب الأمثلة للتسهيل وطرح الأدوات بتفصيل حتىٰ يسهل تطبيقها.

ليس الكل يستطيع أن يحارب بنفس الطريقة والنفوس تتوزع مضامينها وقوتها وإدراكها لهذه القوة، وإن كانت المدرسة ذلك العنصر المتوحش فلا بأس إن حاولنا تقليم أظافر هذا الوحش أو تهذيب طباعه، فبدل أن يقتل الطلاب ليتركهم وشأنهم أو ليتح لهم علىٰ الأقل فرصًا للتعلم تخالف القيود التي يضعها.

وكأي مؤسسة من المؤسسات الحديثة لا يمكن أن يكون هناك حلٌّ واحدٌ لإشكالاتها، فنطرح زوايا الحل عل كلمة تصل إلىٰ معلم فيغير ويتغير ويغير من تحته، مهما كان القيد، ومهما كان طابع السجن، فنستطيع أن نخرج منه، مثل بيجوفتش الذي كتب «**هروبي إلىٰ الحرية**»، أو نحول تلك العتمة إلىٰ باهرة فعلًا أو أقلها بدل العتمة نحولها إلىٰ نور؛ لأجل ذلك وذاك كتبت هذا الفصل.

*** إشكالات الواجب المدرسي:**

يعتبر الواجب المدرسي هو النوع الأساس لتثبيت المعلومة عند الطالب، وعلىٰ أنَّ الواجب المدرسي لا يخلو من فائدة بطبيعة الحال إلَّا إنَّ سلبياته أعظم بكثير من فائدته لنستكشف ذلك:

(١) أنَّها عبء علىٰ الأبناء:

إنَّ كثرة الواجبات المدرسية تنهك كاهل الطفل وتدخله في دوامة الإحباط؛ فالطفل كما هو معلوم مفطور علىٰ حب اللعب وحب الحركة، والعجيب في الصف المدرسي أن أكبر عدو لهذا الصف هو اللعب أو الحركة، فكم سمعنا في سنة الطفولة: لا أريد حركة، أريد أن أسقط الإبرة فنسمع رنتها، كتف يدك= وكل هذه الأوامر تعبر عن منظومة خانقة تسجن فطرة الطفل داخل خيالات الكبار، فبدل أن يمارس الطفل الفضول والاستكشاف ينهمك في حل واجبات صفية لا يعلم الطالب هدفها في الأساس، بل لك أن تتخيل أن من المعروف والمسلم به أن الحركة الجسدية هي جزء أساسي وضروري لعملية التعلم كما تقول نانسي فيري صاحبة كتاب ٥٠ طريقة للتعلم التفاعلي:

Also movement is important in learning.

أيضًا الحركة مهمة في العملية التعلمية.

خذ مثالًا علىٰ ذلك: الرمل، فهو يُستخدم للتمرين الحركي عند الأطفال العادين والذين يعانون من التوحد أو ما شابه، والحركة مع الرمال تساعد علىٰ توسع الفكر والمخيلة وتعزز العلاقات الاجتماعية وقد تدعم التجربة العلمية.

بل ما زال الطفل بخير مادام يتحرك؛ لأنَّ الجلوس لما يقارب السبع ساعات في مقا عد الدراسة تساعد علىٰ السمنة وتعطل سير

العضلات وبنائها بالشكل الصحيح، بل وتعلم الطفل علىٰ الكسل والخمول والتعود علىٰ الجلوس بدلا من التحرك والتفاعل.

أضف إلىٰ ذلك ما يخبرنا به ألفي كون في كتابه مشكلة الواجبات المدرسية: «إنَّ من أهم هذه الأعباء للواجبات المدرسية أنَّها تهيمن علىٰ واقع حياة الأطفال المتعثرين دراسيًّا -فتصبح كابوسًا لتثبت ضعف النفس- وتسلب الطلاب المتفوقين بهجة التعليم؛ حيث تصبح المدرسة بالنسبة إليهم بمثابة مكان العمل وفي نهاية يوم العمل ذي الساعات السبع، يكون الطالب قد شعر بالإنهاك ولكن لا تنتهي القصة هنا بل يصبح الطالب كالموظف الذي يعمل علىٰ امتداد دوامين، ويضطر لمواصلة العمل بمجرد أن يعود لمنزله»[1]!

(٢) أنه عبء علىٰ الآباء:

فالواجبات المدرسية تحتاج إلىٰ مساحة واسعة من وقت الآباء ومن خبرتي الشخصية أعلم مجموعة من الأهالي المتميزين الذين عدم يومهم كاملًا بسبب أعباء الواجبات المدرسية، فتكون ذات أثر مباشر علىٰ خلخلت البناء الاجتماعي للأسر في بيئة تضغط الطفل وأهله وتخرجهم من طور الحياة الطبيعية.

---

(١) «**مشكلة الواجبات المدرسية، لماذا نحمل أبناءنا المزيد مما لا يفيد؟**»، ألفي كون، خلاصات كتب التربية والتعليم، العربية للإعلام (شعاع)، (العدد ٥٠)، (ص/٢).

(٣) تحرم الطالب من ممارسة أنشطة أخرىٰ:

فالطالب عندما يعود إلىٰ البيت يعود مثقلًا بالواجبات، فبعد سبع ساعات من الضبط والترشيد في المدرسة تنتقل المهمة للبيت ليمارس هذا القمع علىٰ الطفل، والطفل في هذه المنظومة لا يحظىٰ بفرص كافية للجلوس مع أبويه أو يضطر لنمط من التعليم لا يهتم بغير المهارات التقليدية فلا يتشكل عند الطفل حب القراءة أو الاستمتاع بها، بل العكس هو ما يحدث فستعتبر القراءة عبءً إضافيا إذا تمت مناقشة الطفل بأهميتها؛ لأن القراءة ارتبطت في سياق التعب وإقصاء الطبيعة الطفولية من اللعب والاستكشاف والحرية في التصرف، وما دامت الواجبات المدرسية تلتهم الوقت المفترض أن يقضيه الطفل في الخبرات الاجتماعية والاستجمام خارج المنزل وممارسة الأنشطة الإبداعية = فهي عاجزة عن الوفاء باحتياجاته الأساسية.

(٤) تضعف الشغف في التعلم:

الشغف في التعلم هو أقرب ما يكون إلىٰ فطرة فطر الله البشر عليها، ويقول في ذلك آينشتاين: «إنَّ أكثر الأمور غير المفهومة في الكون، أنَّه قابل للفهم»[١]، بل الأعجب من ذلك هو ذاك الشغف

(١) Michael Denton ،"Nature's Destiny: Hom the laws of Biology Purpose in the universe"، The New York The free press.1998. p.12-13.

الذي يقابل هذه القابلية، فالكون المصمم لنتعرفه ونتحسس قوانينه يقابله شعور عارم في حب المعرفة تتلمسها عند الطفل في أول سنوات حياته حيث معدل ما يسأله الطفل في عمر (٣-٥ سنوات) عبارة عن (١٠٠ سؤال يوميًّا)! لك أن تتخيل هذا الشغف؟ ولكن الإشكال الكبير في الواجبات المدرسية أنَّه يوجه هذا الشغف كله في طريقة واحدة للتعلم من خلال الحل الورقي في الأغلب، بل والأسوأ أنَّ الأطفال عموما يكرهون هذه الواجبات التي تثقل يومهم المدرسي ويومهم العائلي فيبدأ هذا الشغف في الخفوت كما سنبين في الصفحات القادمة.

(٥) تعزيز الفردية وإهمال قيمة التعاون والمشاركة:

كثير من الدراسات التي تميل أو تعلي من شأن الواجبات المدرسية تتخذ شعار الاستقلال والفردية كميزة أساسية من مميزات هذه العملية، وهذه الفردية التي تنبع في الأساس من هيمنة القيم الفردية التي غُصبت المجتمعات علىٰ تبنيها، فالغالب وهو الغرب أصل ثورته منذ البداية نحو مفهوم الحرية ومن هذا المفهوم تم تثوير مجموعة من المفاهيم الفرعية التي منها الفردية والاستقلالية، وفي هذا الصدد يقول ألفي كون: تقدر العديد من المجتمعات قدرة المرء علىٰ العمل وحده ودون مساعدة الآخرين، وفي ضوء هذا نقيم تطور الطفل وفقا لحجم المساعدة التي يحتاج إليه من عدمه؛ لهذا تضاعفت أهمية الاعتماد علىٰ النفس حتىٰ أصبحت تغطي علىٰ

غيرها من القيم الأهم كبناء العلاقات والتعاون»[1]، ولو نظرنا بدقة لوجدنا أن الواجبات المدرسية تفقد الطفل مفهوما عنصريا في التعلم وهو التعلّم من الأقران فيعكف الطفل وحيدًا داسًا رأسه بين الورقة والكتاب محاولًا إنجاز ما طلب منه دون اعتراض أو سؤال عن فائدة في هذه العملية المستغرقة للوقت، وحتىٰ الواجب المنزلي الذي من المفروض أن يكون حسًا تعاونيًّا بين الطفل وأبويه يتحول إمَّا لإرهاق للأب والأم من كثرة الواجبات أو منع مطلقًا من المدرسة حفاظًا علىٰ فردية واستقلالية الطفل؛ ليتحمل حس المسؤولية، والغريب أنَّ «الواجبات المدرسية لا تساعد الطفل علىٰ اكتساب سمة المسؤولية، بل تستخدم كلمة (المسؤولية) عادة بمعنىٰ مختلف تمامًا في السياق المدرسي، فمن خلال بعض الدراسات اتضح أن الأطفال يعتبرون أن معنىٰ (المسؤولية) هو الانصياع لما يطلب منهم دون اعتراض أو إبداء للآراء= تجيد المدرسة تعليم الطلاب اتباع الأوامر؛ لذا فنحن بحاجة إلىٰ مراجعة مسألة تكليف الطلاب بالواجبات المدرسية كل ليلة لمجرد تعليمهم الطاعة العمياء علىٰ حساب وقتهم واهتماماتهم»[2].

---

(١) «**مشكلة الواجبات المدرسية، لماذا نحمل أبناءنا المزيد مما لا يفيد؟**»، ألفي كون، خلاصات كتب التربية والتعليم، العربية للإعلام (شعاع)، (العدد ٥٠)، (ص/٣).

(٢) «**مشكلة الواجبات المدرسية، لماذا نحمل أبناءنا المزيد مما لا يفيد؟**»، ألفي كون، خلاصات كتب التربية والتعليم، العربية للإعلام (شعاع)، (العدد ٥٠)، (ص/٣).

(٦) إضعاف الجانب العضلي:

إنَّ اقتصار الواجبات المدرسية علىٰ الورقة والقلم فقط تضعف باقي عضلات الطفل الجسدية؛ لأنها في الأساس تكون معطلة، فالطفل في داخل الصف المفروض أن يكون خشبة، بل قطعة متخشبة وعندما نعطيه مساحة في داخل الصف أو في البيت نضعه أمام كومة الواجبات المدرسية الكئيبة بنظره فيكسل دماغيا؛ لأن الأمر ممل، ويكسل عضليًّا لأنَّنا نعتمد علىٰ عضلات يد واحدة فقط، ولهذا أيضًا تجد أنَّ كثيرًا من طلاب المدارس بنيتهم العضلية هزيلة وأحوالهم الصحية ضعيفة؛ لأنَّ جسده الطفولي الذي في مرحلة النمو يتم تطويعه لعملية كبت قاتلة داخل الصف والمنزل قد تحوله إلا كتل من الدهون المترهلة، أو إلىٰ شخصية قليلة المهارات الذهنية وبسيطة المهارات الحركية والعضلية.

(٧) تعميم الطيش:

المقصود من تعميم الطيش أنَّ أصل فكرة الواجبات المدرسية قائمة علىٰ افتراض مبطن يقر أن الأطفال طائشون وأشقياء أصالة، فعلينا نحن كمدرسين أو آباء أن نسيطر علىٰ إيقاع حياة الطفل حتىٰ لا يخرج عمَّا هو مألوف أو لا يخرج عن حد الأدب، ولو دققت النظر هنا فنظرتنا أن الطفل سيخرج عن المألوف حتمًا وبذلك سيسيء الأدب افتراض ليس عليه دليل في الأصل، والأمر أن

الطفل قطعًا سيخرج عن المألوف؛ لأنَّ الطفل عنده حب الفضول فطرة وحب الاستكشاف سجية، ومجمل ما نفعله نحن هنا هو قتل هذا الميول الفطري تحت آلية الضبط المجتمعي أو الخضوع لكل مألوف، وقيّدت المسألة بكل المألوف؛ لأنَّ بعض المألوف ضروري بل هو من الدين ولا أريد تفصيلًا في هذا الباب؛ لأنَّه يعود إلىٰ مسألة العرف وحدودها وضوابطها.

إذًا افتراض أن الطفل يجب عليه أن يُنفذ هذه الواجبات وتحت رعاية الآباء حصرًا تقوم علىٰ افتراض ظالم للطفل يخلط بين قلة الأدب وحب الفضول، ولا يستطيع التفريق بين مفهوم الطيش وفكرة حب الاستكشاف= لهذا كان هذا التعميم قاتلًا لنفسية الطفل ومدمرًا لحس الإبداع والابتكار فيه.

وعليه «إذا كنا لا نثق بقدرة أبنائنا علىٰ تجنب المتاعب، فإن محاولتنا إبقائهم مشغولين -بالواجبات المدرسية- لن تحقق لنا الهدف، فأيّا كان ما يفعله أطفالنا فهو يعكس طبيعة علاقتنا بهم أكثر مما يعكس طريقة استغلالهم لوقت فراغهم، وفي الواقع عدم ثقة الأبوين في أطفالهما قد تؤدي إلىٰ تحول مخاوفهم إلىٰ أمر واقع حين ينتهي المطاف بهؤلاء الأبناء إلىٰ التصرف وفق التوقعات المخيبة للآمال -كأنهم كسالىٰ وطائشين ...-؛ فإذا كانت هناك مشكلات كبيرة تبرر مخاوف الأبوين، فلا بُدَّ من التعامل معها

بشكل مباشر لأنها لن تتبخر أو تختفي تحت كومة من الواجبات المدرسية»[1].

* في نقاش أهم الافتراضات التي يركز عليها من يرىٰ فائدة الواجبات المدرسية بشكلها الحالي.

(١) يكمن الافتراض الأول في أن الوقت الممتد لعملية الواجب المدرسي كفيلة بأن تعطي الطالب المهارة اللازمة أو المكتسبة من الدرس، ويقبع تحت هذا الافتراض مفهوم يحتاج إلىٰ دليل وهو: هل مجرد زيادة الوقت أو طوله كفيل بأن يكسب الطالب مهارة معينة؟

حسب إحصاءات منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD)؛ فإن الطلاب الفنلنديين في عمر ١٥ عامًا يصرفون وقتًا أقلا علىٰ الواجبات المنزلية مقارنة مع جميع أقرانهم علىٰ مستوىٰ العالم[2].

تكمن أهمية هذا الاستشهاد أن فنلندا منذ ما يقارب (١٢ سنة) تتربع علىٰ قمة التعليم في مستوىٰ العالم، وسنمر علىٰ التجربة الفنلندية في نهاية هذا الكتاب، وما يهمنا هنا التأكيد علىٰ أن

---

(١) «**مشكلة الواجبات المدرسية، لماذا نحمل أبناءنا المزيد مما لا يفيد؟**»، ألفي كون، خلاصات كتب التربية والتعليم، العربية للإعلام (شعاع)، (العدد ٥٠)، (ص/٥).

(٢) Sahlberg, Pasi, Finnish lessons, what can the world learn from educational change in Finland, p,49.

الطالب الفنلندي يقضي وقتًا أقل في المدرسة تقريبا يجلس من الساعة (٩:٠٠، أو ٩:٤٥) إلىٰ الساعة (٢:٠٠ أو ٢:٤٥)، أي ما يعادل الخمس ساعات فقط، وفي هذه الخمس ساعات ما يحصل عليه من حصص تعليمية لا يتعدىٰ الأربع ساعات علىٰ الأكثر، ومع كل هذا فإن الطلاب الفنلنديين في عمر ١٥ حسب البرنامج الدولي لتقييم الطلبة (PISA)، والذي تجريه منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD) حصلوا علىٰ القمة في (سنة ٢٠٠٦) في قياس درجات الأداء في المهارات الحسابية.

وهنا نشاهد جدول قياس درجات الأداء في المهارات الحسابية لعدة دول حسب منظمة التعاون الاقتصادية للتنمية:

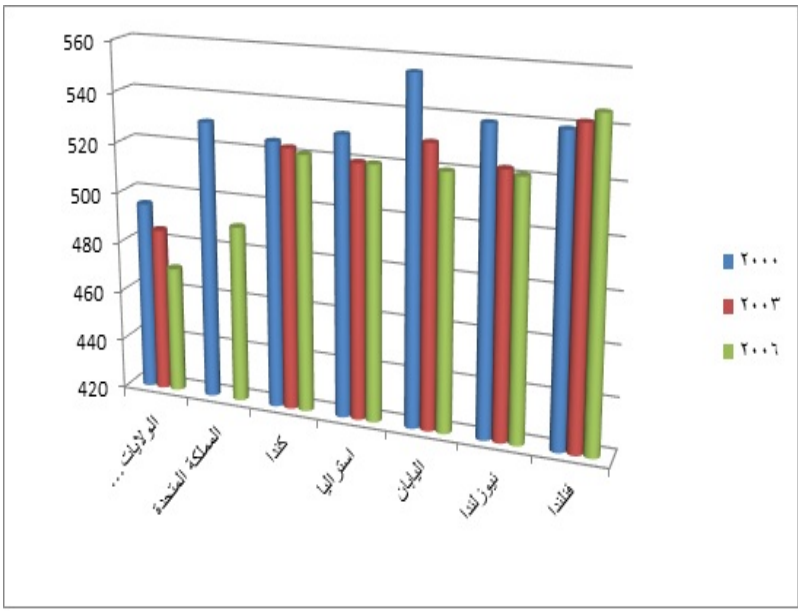

إذًا فإن الفرضية القائلة أن زيادة الواجبات الدراسية هي التي ستزيد من قدرة الطالب علىٰ اكتساب المهارة تصبح باطلة في ظل هذه الإحصاءات الدقيقة التي تجريها المنظمة، وعليه ننتقل للفرضية الثانية وتفنيدها.

(٢) الفرض الثاني يقوم علىٰ أساس أن الممارسة الكثيرة تعزز اكتساب المهارة وتحفظها من الزوال، وأتجه هنا إلىٰ أكثر مرحلة دراسية حرجة في حياة طلابنا العربي ولنقل في الأردن ومصر وهي المرحلة الثانوية، وقد سألت عددًا كبيرا من الطلاب قديما وحديثا عن أي الفوائد التي حصلوا عليها من هذه المرحلة التي يكثر فيها الممارسة حد الملل، فكان الجواب شبه المجمع عليه لا أذكر شيئًا! فكيف بالمراحل العمرية السابقة لهذه المرحلة الحرجة، سيكون الجواب أكثر إحباطًا بلا شك.

وهنا أستعير نص الفيلسوف الإسلامي الكبير علي عزت بيجوفيتش حيث نظر إلىٰ كثير ممن يمارسون القراءة بنهم وتكرار دون هضم فقال:

«القراءة المبالغ بها لا تجعل منّا أذكياء، بعض الناس يبتلعون الكتب وهم يفعلون ذلك بدون فاصل للتفكير الضروري، وهو ضروري لكي يُهضم المقروء ويبني ويتبنىٰ ويفهم، وعندما يتحدث إليك الناس يخرجون من أفواههم قطعًا من هيجل أو ماركس في حالة أولية غير مصاغة جيدًا.

عند القراءة فإن المساهمة الشخصية ضرورية مثلما هو

ضروري للنحلة العمل الداخلي والزمن لكي تحول رحيق الأزهار المتحول إلىٰ عسل»[1].

فليس التكرار وإن كان في واجب دراسي أو غيره هو الأساس في عملية اكتساب المعرفة أو المهارة بل لا بُدَّ من العمل الداخلي وعمل الطالب الداخلي هنا أن يفهم لماذا عليه أن يحل كذا وأن يفهم أن ميوله حتىٰ عندما ينخرط في عمل معين سيخرج لنا السمن والعسل.

بعد أن استعرضنا إشكالات الواجب الدراسي وبناء علىٰ ما ألزمنا به نفسنا أن نتعامل مع الواقع ونحاول إصلاح ما استطعنا به وإن كنا نشك في قدرة المنظومة المدرسية كلها، فأقدم هنا مجموعة من الحلول التي قد تساعد المدرسين في التخفيف من ثقل هذه الواجبات علىٰ أنفسهم وعلىٰ طلابهم بل وعلىٰ أهالي الطلاب:

(١) لتكون النقطة الأولىٰ علىٰ شكل اقتباس من التجربة الناجحة التي استغلها الكثير من المدرسين حين رفع سلمان خان الدروس علىٰ الإنترنت، ثم يحضرها الطالب في أي وقت يريد من اليوم، ثم عندما يأتي الطالب للمدرسة تكون هناك حلقات نقاشية وعصف ذهني وحل للمشكلات بدل ممارسة التلقين في الغرفة الصفية.

---

(١) علي عزت بيجوفيتش، «**هروبي إلىٰ الحرية**»، ترجمة إسماعيل أبو بندورة، دار الفكر (٢٠٠٢م)، (ص/٢٦).

(٢) يستطيع المعلم أن يربط مفهوم الواجب المدرسي مع مفاهيم بيتية فعلىٰ سبيل المثال ليكن هناك درس في التعاون فيوجه المدرس الطالب لمساعدة والدته في ترتيب البيت أو إعداد وجبة الطعام، مع طلبه من الأهالي تقريرًا بسيطًا عن عمل الطفل في المنزل، أو يربط مادة رياضيات في اقتصاديات البيت فيرسل للآباء طالبًا تقريريا أو إرشادي عن كيفية استغلال المصروف في تعليم الطفل الجمع والطرح وما شابه، وهذه المهام الصغيرة فوق أنها تساعد الطفل علىٰ ربط مفاهيم المدرسة في البيت فإنها تساعده كذلك في نضجه العائلي والاجتماعي وتقربه من واقع الحياة ولا تقصيه عنها كما تفعل الواجبات المدرسية الجامدة.

(٣) تكليف الطفل بنشاط اجتماعي، فبدل من أن يكون الواجب عبارة عن مهارة اكتسبها الطفل في المنزل نستطيع أن ننوع مهاراته في الخارج، فعلىٰ سبيل المثال قد نطلب من الطفل الانخراط في لعبة شطرنج مع البالغين أو تعلمها، أو نطلب منه تعلم السباحة، أو التعود علىٰ ممارسة القراءة أو الاستماع لها بمشاركة أحد الأقارب؛ تساعد هذه الطريقة من تخفيف ثقل الواجبات الدراسية عن كهل الطفل بل وتعرفهم علىٰ عوالم أخرىٰ غير إطار الورقة التي يحبس الطفل بها أنفاسه في الغرفة الصفية وفي المنزل، وتساعد هذه الطريقة في تحبيب الطفل بعملية التعلم فلا تكون عملية التعلم عبارة عن تلقي أوامر واتباعها، بل يخير الطالب في النشاط الذي يحب ممارسته وترصد له الدرجة بناء علىٰ

ما اختار، وبهذا العمل نعلمه تحمل المسؤولية حقيقةً، فنكون في غاية الوضوح معه: أنت اخترت تعلم السباحة فستكون درجتك المرصودة للواجب بناء علىٰ إتقانك المهارة التي اخترت.

(٤) نستطيع أن نجعل الواجب الدراسي عبارة عن مشروع (Project) يشترك فيه مجموعة من الطلاب وفي نهاية الفصل تسلم كل مجموعة مشروعها التي اختارت أن تعمل عليه، وهذه الطريقة تخفف من الحمل داخل الفصل وفي المنزل وتعلم الطالب العمل الجماعي، بالإضافة إلىٰ إيقاظ حس البحث فيه؛ فالمشاريع تحتاج إلىٰ بحث في المصادر وتبويبها وترشيدها، وهنا لا بُدَّ للمدرس قبل أن يُقسم الطلاب إلىٰ مجموعات عمل أن ينظم دورة مكثفة يعلمهم بها أبجديات البحث وأين سيجدون المصادر وكيف سيعرضون نتائجهم ويناقشوها، وهذه الطريقة تساعدهم لأنها أقرب للواقع وأقرب لمفهوم البحث العلمي من التعليم التلقيني.

وأختم الكلام علىٰ الواجب الدراسي بما قاله ألفي كون عن طبيعة تعليم الأطفال:

«إن الجهد المبذول لتحويل الأطفال إلىٰ مخلوقات مجتهدة، بإكراههم علىٰ العمل الشاق، وغرس عادات العمل الإيجابي بالقوة= يعكس جهلا شديدًا بالكيفية التي يتعلم ويعمل بها البشر علىٰ أرض الواقع، فالإنسان مكتشف نشط وليس جهاز استقبال سلبيًّا تستطيع أن تصب في داخله المعلومات أو المهارات، ولكي

نساعد الأطفال علىٰ اكتساب حس المسؤولية أو الاستقلالية، أو أي سمة أخرىٰ يجب أن نعمل بالتعاون معهم، بدلًا من أن نجبرهم علىٰ أعمال لا يحبونها (كالواجبات المدرسية)، ويتطلب هذا الأمر الاستماع إلىٰ رغباتهم، وتلبية احتياجاتهم، والانتباه إلىٰ الكيفية التي ينظرون بها إلىٰ الحياة»[1].

(١) «**مشكلة الواجبات المدرسية، لماذا نحمل أبناءنا المزيد مما لا يفيد؟**»، ألفي كون، خلاصات كتب التربية والتعليم، العربية للإعلام (شعاع)، (العدد ٥٠)، (ص/٣).

البيئةُ المدرسيّةُ

(١) البيئة الصفية:

في ورقة بحثية بعنوان تأثير البيئة الصفية علىٰ تعليم الطلاب لصاحبها راين حنا يقرر أن البيئة التقليدية في ترتيب الأدراج التي يجلس عليها الطلبة تقود إلىٰ تقليل تركيز الطلاب وترفع من معدل الاضطراب في الصف، وهذا النمط من الترتيب لا يشجع الطلاب علىٰ التفاعل بين بعضهم البعض بقدر ما يشجع العمل الفردي والانعزال[١].

ينقص معظم الغرف الصفية المعدات الأساسية لتطوير المهارات، فالغرفة أشبه ما تكون بسجن مقسم إلىٰ غرف حسب الفئات العمرية، فالمصمم في الأغلب لا يُهتم بإنارتها ولا برحابة الغرفة، وهذا نتيجة عدة أسباب:

(١) ضعف إدارة المساحات في المدارس الحكومية.

(٢) ضغط عدد الطلاب مع ضعف الرافد المادي من قبل

---

(١) The Effect of classroom Environment on Student learning, by Ryan Hannah, western Michgan University, scholaeworl at WMU, p: 4,

الحكومات مما يؤدي إلىٰ تكدس الطلاب خاصة في الوطن العربي والدول الفقيرة.

(٣) في المدارس الخاصة يؤخذ الأمر من ناحية المنفعة الاقتصادية؛ فعدد الصفوف كلما حُصر به عدد طلاب أكثر كلما در أموالًا أكثر، فتناسب الغرفة مع العدد سيكون سيئًا في الأغلب لاستغلال المساحة من الناحية المادية فقط.

وبما أنَّنا نتكلم عن المساحة فلنسمع لما تشير إليه أستاذة هندسة العمارة والتصميم «كلير جالاجر»، حيث أشارت «إلىٰ أن أساليب التوجيه التقليدية في ثقافتنا التعليمية هي لغوية أو رياضية، ونادرًا ما يكون هناك اهتمام بالاستيعاب البصري أو المكاني أو بمهارات حل المشكلات، وعملت الأستاذة كلير مع التلاميذ الذين يعانون من مشكلات في المدارس الابتدائية لتصميم وتخطيط أحيائهم السكنية بمثابة تجربة معهم، والعجيب أن هذه التجربة كشفت لها أن الأطفال يتمتعون بمعرفة وفهم ممتازَين لمفهوم (المحيط المكاني) لكن للأسف صناع السياسات من معلمين ووزراء وغيرهم غير مهتمين بصقل وتوظيف هذه المهارة»[١].

يذكّرني هذا الكلام بما ذكره هانس سلوجا عن فتجنشتاين، عندما أشارت له أخته الكبرىٰ مارجريت إلىٰ بناء بيت لها إذ كان

---

(١) «**المدارس التي نريدها، تصورات الأطفال عن تعليم يواكب المستقبل**»، كائرين بيرك - أيان جورفنور، خلاصات كتب التربية والتعليم العلمي (شعاع)، العربية للإعلام، (العدد ٦٩)، (ص/٢).

يعمل في هندسة البناء فأتمه، فعندما دخلت أخته الصغرىٰ بيت أختها علقت: إنه منطق يدور في المنزل، وليس مسكنًا بشريا[1].

فلك أن تتخيل كيف هي الصفوف والبيوت التي بُنيت بعقلية منطقية مجردة هاربة من الحياة ولا أعلم رأي فتجنشتاين في طوره الثاني عندما رفض هذا التجريد واتجه إلىٰ اللغة العادية والطبيعة وبين وفرتها وجمالها وعوالمها وقوتها مقارنة باللغة المنطقية المجردة الخالية من روح الحياة، فاللغة الطبيعية حياة زاخرة بالاستعارة الحية وزاخرة بعوالم عديدة، فليت فتجنشتاين اتجه لبناء بيت حسب فلسفته الثانية وظني أنَّه لو فعل فسيكون آية في الجمال وأقرب للإنسان وروحه ولغته!

وإن أردنا استعارة دقيقة لشكل المدرسة في نفوس الأطفال لا أجد أمثل مما وصف به دستويفيسكي تلك البيوت في رواية الأبله حيث قال: إن ظاهر هذه المنازل كباطنها جفوةً وعبوسًا: فكل شيء يبدو للمرء فيها باردًا وموصدًا وسريًا، دون أن يستطيع المرء مع ذلك أن يحلل بواعث هذا الشعور بسهولة، لا شك أن التزاوج بين الخطوط المعمارية في هذه المنازل يشتمل علىٰ شيء يشعر بالسرية والخفاء[2].

---

(١) «**طتجنشتاين**»، هانس سلوجا، ترجمة د. صلاح إسماعيل، المركز القومي للترجمة، (٢٠١٤م)، (ص/٥٤).

(٢) «**الأبله**»، الجزء الثاني، دستويفسكي، ترجمة سامي الدروبي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولىٰ، (ص/٣٧١).

وهكذا المدارس بجفائها وعبوسها القاتم وكل شيء فيها موصود وسري، فممنوع أن تدخل المدرسة وهي مغلقة وكأنها سجن نهاري، وممنوع أن تدخل غرفة المعلم فهي من المحرمات الكبرىٰ، وممنوع أن تستخدم المرسم إن كان غير مشغول بصف وغيرها= دهاليز من الظلمات بعضها فوق بعض.

(٢) الألوان:

هناك عدم اهتمام ببعد الألوان في المدارس، فكثير من المدارس تضع ألوانها كيفا اتفق، ولا يعلم المصمم الدراسات الكثيرة والكبيرة التي تناولت مفهوم اللون وعلاقته بالإدراك، فهناك من الألوان ما يناسب حالة التركيز، وغيره ينزع نحو خلق جو من الهدوء وغيره مما هو مبثوث في مباحث الألوان وعلاقته بعلم النفس والإدراك، وإن فحصنا ماذا يريد الأطفال فتقول ليام ذات الأربعة أعوام: «أرغب في كثير من الألوان بكل مكان بالمدرسة»[1]، أضف إلىٰ قول الأطفال قول الخبراء في ذلك فهذا رون ريتشهاردت الباحث في جامعة هارفرد يقول:

البيئات الرتيبة ذات الألوان الفاترة تسبب الإرهاق العام وإجهاد العين، وتقلل من كفاءة وإنتاجية الطلاب، وتشتت انتباههم

(١) «**المدارس التي نريدها، تصورات الأطفال عن تعليم يواكب المستقبل**»، كائرين بيرك - أيان جورفنور، خلاصات كتب التربية والتعليم العلمي (شعاع)، العربية للإعلام، (العدد/٦٩)، (ص/٢).

عن المسار الصحيح، وتثير السلوكيات غير المرغوبة، لذا نقترح تأسيس (حائط تركيز) مطلي بلون غير عاكس ومناقض للألوان السائدة؛ بهدف تقليص حدة التبعات السلبية السابقة، فهذا التناقض يريح العين ويساعدها علىٰ استعادة التركيز[1].

فهل لنا أن نستمع لصوت الطفولة ونجعل مدارسنا ملونة لتناسب طبيعة البشر التي تميل فطريا للألوان.

(٣) مقصف المدرسة:

يعتبر مقصف المدارس العربية عبارة عن مجزرة صحية تقام بحق الأبناء، فأغلب المواد التي تباع في المقصف عبارة عن مواد معلبة رخيصة الثمن والجودة وقد تكون مسرطنة، ولكن لا إشكال إن كان فيها بعض الربح لبعض الأساتذة فيترزق ظلمًا علىٰ ظهور الطلاب ويقتات سفاحًا من بطونهم، وإن أردنا سماع رأي الأطفال في المقصف الذي يريدون ضمن البرنامج الذي أطلقته مجلة الجاردين تحت عنوان المدارس كما نريدها = فهذه آراؤهم:

أليس ذو (٧ أعوام) يقول: المقصف المثالي بالنسبة إليّ عبارة عن قاعة ومقاعد وطاولات وأطباق وأكواب ذات ألوان مبهجة.

نات ذو (١١ عامًا) يقول: يجب أن يأكل التلاميذ والمعلمون معًا في نفس المكان، ويتناولوا نفس الأطباق.

---

(١) «**ثقافة التفكير ... سلاح التغير، ثماني قوىٰ تقلب موازين التعليم**»، روان ريتشاردت، خلاصات كتب التربية والتعليم، العربية للإعلام العلمي (شعاع)، (ص/٨).

أما أليس فيقول: نشتري من مقصف المدرسة وجبات سريعة منعدمة القيمة وباهظة الثمن، يجب أن نحصل علىٰ طعام مختلف، صحي وسعره مناسب[1].

إن كان لي من تعليق علىٰ هذه الطلبات فالطلب الأول لم نكن نحلم به، حيث كنا نجلس علىٰ الأرض أو علىٰ بقايا الأسوار أو ككثير من المدارس كنا نتناول طعامنا أثناء السير حيث جميع الأماكن مشبعة، وربما هذه الأيام في المدارس الخاصة قد نجد مثل هذه المقاصف، لكن قطعًا سيكون هدفها تجاريًّا لا تعليميًّا، لكن هل يمكن أن يكون المقصف تعليميًا؟

نعم ممكن، وفي فنلندا تستغل الفسح في تعليم الطبخ وتحضيره، فيعتمد الطالب علىٰ نفسه، ويتعلم مهارة جديدة تعتمد علىٰ المشاركة وتفعيل العامل الاجتماعي، ثم يأكل أكلًا صحيًّا بدلًا من كومة السموم التي تسمىٰ طعامًا في المقاصف.

أما كلام نات؛ فهو في محله، فليس أجمل من أن يجلس الطالب والمدرس علىٰ طاولة واحدة، وكنت أفعلها حيث أجعل حصة معينة فقط للأكل، وشرب القهوة ومشاركة أطراف الحديث، فأقترب من الطلاب أكثر وأعرف مشاكلهم بشكل أقرب ممَّا يوضح لي الصورة التي يقبع خلفها الطالب، فأستطيع مساعدته.

---

(١) «**المدارس التي نريدها، تصورات الأطفال عن تعليم يواكب المستقبل**»، كائرين بيرك - أيان جورفنور، خلاصات كتب التربية والتعليم العلمي (شعاع)، العربية للإعلام، (العدد ٦٩)، (ص/٣).

أمَّا الكلام الأخير عن الوجبات السريعة، ففي أيامي لم يكن لنا تخيل هذه الرفاهية أصلًا إلَّا أنَّ الآن -حسب علمي- هناك مدارس تحتوي هذه الأطعمة عديمة الفائدة التي تتشارك مع الواجب الصفي في تحويل الطالب لكتلة دهون متكلسة الذهن وقليلة الحركة، وهذا يقودنا حتمًا لسوء إدارة الحياة الغذائية في مدارسنا نتيجة لإهماله في مجتمعنا من الأصل.

(٤) خلو المدارس من غرف للراحة أو أماكن للراحة:

يقول جوناثان ذو (١٧ عامًا) عندما سُئل عن كيف يريد مدرسته فأجاب:

سيكون في مدرستي المثالية عديد من أماكن الاجتماع المريحة وغير الرسمية للتفاعل الإبداعي بين مجموعات صغيرة من التلاميذ حول الأمور المهمة، ولن يقتصر هذا علىٰ المنهج الدراسي فحسب، وإنَّما سيمتد ليشمل القضايا الرئيسية في المجتمع المحلي والدولي.

إنَّ وجود مثل هذه الغرف التي يشير لها جوناثان تشجع علىٰ إخراج أفضل ما عند الطالب وترفع عنه الحرج وتساعده علىٰ الاقتراب من البيئة الطبيعية أكثر، بدلًا من حصره في غرف الصف الضيقة، بالإضافة إلىٰ أنَّ هذه الغرف المريحة تساعد الطالب علىٰ التعلم من رفقائه (Learning by peer)، وهذه الطريقة يوجد شبه إجماع إنساني عليها علىٰ أن الطفل والبالغ أكثر ما يتعلم من رفقائه.

في الوثائقي الذي يحمل عنوان: الظاهرة الفنلندية[1] نجد أن الغرف الصفية مجهزة للاسترخاء ولا تضج بالعوامل الرسمية، وقد وصل الحال بالطلاب أن يسموا مدرسهم باسمه لرفع الكلفة بين الطالب والمدرس، وبغض النظر إن كنا نتفق أم لا مع هذه الجزئية إلَّا أنَّها تشير إلىٰ ثقافة قائمة علىٰ ثقافة التعليم براحة لا بضغط.

(٥) الحمامات:

إذا أردت أن ترىٰ مكرهة صحية لا تحتوي علىٰ أدنىٰ حس من أبجديات الثقافة فاذهب إلىٰ حمامات المدارس الحكومية في البلدان العربية، الحمام في الثقافة العربية والإسلامية يعبر عنه ببيت الخلاء -وليس المقصود هنا الحمام بعمومه لأن المفهوم في سياقه التاريخي تحول وأصبح في بعض المناطق كالأندلس وبغداد والشام ومصر جزءا من الترف العالي- وأما بيت الخلاء فمن اسمه هو مكان فضاء يبعد به المرء ليأخذ راحته في قضاء حاجته، أما في الثقافة الإنجليزية فيسمىٰ الحمام (Restroom)، أي غرفة الراحة أي ذلك المكان الذي يشعر به المرء بالراحة من حيث النظافة ومن حيث التصميم وغيرهما.

وفي هذا يحدثنا كل من كاثرين بيرك وأيان جروفنور أن الحمامات تعتبر واحدة من المشكلات الكريهة في مدارس كثيرة،

---

(١) رابط الفيلم:

https://www.youtube.com/watch?v=lGfeU9s46p8

وقد اقترح عديد من الأطفال أساليب علمية لتحسينها، لكن أغلبيتهم أرادوا أن تكون ذات طابع منزلي، وأكثر راحة، وأسهل في الاستخدام، ويرىٰ الأطفال أن عدم وجود مزلاق مثلًا في باب الحمام لإغلاقه بأمان أثناء وجودهم أمر مثير لتوتر، علاوة علىٰ أن انخفاض مستوىٰ النظافة يجعلهم غير راغبين في الحمامات، وبالتالي يعانون من شعور بعدم الارتياح من الظهيرة وحتىٰ نهاية اليوم الدراسي[1].

(٦) المرافق:

تعاني كثير من المدارس من المرافق التي تساعد الطفل علىٰ تطوير مهاراته الطبيعية وتجفف من إمكانية الحصول علىٰ مهارات اجتماعية بسبب قلة التفاعل، فالملاعب في المدارس عمومًا قليلة وإن كان هناك عدد منها في المدارس الخاصة فتستغل بشكل تجاري وترويجي لا من خلال رؤية لتطوير مهارات الطفل العضلية والاجتماعية، وكثيرا ما تكون هذه المرافق معطلة أو ممنوعة الاستخدام إلَّا في وقت محدود قد لا يكفي للإحماء، أضف إلىٰ ذلك المرافق العلمية من غرف للتجارب الصغيرة التي يمكن استغلالها في درس الكيمياء والفيزياء، ولا أحدثك عن المكتبة التي إن وجدت في المدرسة ستكون الغرفة المهجورة أو التي

(١) «**المدارس التي نريدها، تصورات الأطفال عن تعليم يواكب المستقبل**»، كائرين بيرك - أيان جورفنور، خلاصات كتب التربية والتعليم العلمي (شعاع)، العربية للإعلام، (العدد ٦٩)، (ص/٥، و٨).

يعلوها الغبار، أما في المدارس ذات الترتيب العالمي المرتفع فإن في كل صف دراسي هناك مكتبة صغيرة إلىٰ متوسطة الحجم تهتم بتنويع المصادر حول المواضيع التي تهم هذا الصف، فيستطيع الطالب هنا أن يجرب أكثر من مصدر للمعرفة وأن ينمي مهارة القراءة من خلال قربه من المكتبة، بالإضافة إلىٰ جمالية تصميم المكتبة وما تعطيه من طابع علمي داخل الصف الدراسي، «ومن المرافق التي اقترحها التلاميذ وجود حديقة حيوان صغيرة داخل المدرسة، بحيث يتمكن التلاميذ الصغار من تعلم مزيد من الأمور عن الحيوانات بشكل علمي، ويقترح جوزيف ٩ أعوام أن المدرسة يجب أن تضم حيوانات المزرعة ليتمكن التلاميذ الراغبون في العمل كمزارعين في المستقبل أن يتعلموا كيفية الاعتناء بهذه الحيوانات»[١].

ما أجمل تلك المدرسة التي تكون ساحاتها مقسمة حسب الفئات العمرية، فساحة الأطفال تكون عبارة عن بيوت خشبية يتفرع عنها عدد من الأشجار وبها ألعاب انزلاق وأرجوحة علىٰ أشكال طبيعية، أما الأكبر سنًا فالملاعب الرياضية وصالات اللياقة البدنية بالإضافة للمسابح= صحيح أن كل هذا مكلف ولكن إن تم ترشيد المصاريف في الخطط الحكومية أو في المدارس الخاصة ستجد

(١) المدارس التي نريدها، تصورات الأطفال عن تعليم يواكب المستقبل، كائرين بيرك - أيان جورفنور، خلاصات كتب التربية والتعليم العلمي (شعاع)، العربية للإعلام، (العدد ٦٩).

المدارس فسحًا من التغير ولو كان بسيطًا لبناء بيئة مدرسية أقرب للطبيعة والبشرية من مدارسنا القاتمة.

في ختام الكلام عن المرافق قد يظن البعض أنها مسألة رفاهية، ولكنها ليست كذلك بل هي في نظري أقرب الأدوات المدرسية للطبيعة ولحياة الواقع فإن نزعنا منها هذه الصفة أضحت المدرسة كليًا شبحا يلاحق حياة الطفل الطبيعية ليمارس عليه عزلة إجبارية تخرجه في أفضل الحالات عنصرا طائعا خاملًا في المجتمع.

(٧) سور المدرسة:

كتبت مقالًا قديمًا رشح للفوز بمسابقة كاتب الألوكة الثانية وأضعه هنا ليعبر عن ما كان يختلج في نفسي عند النظر لذلك السور الطويل:

خلف أسوارِ المدرسة، يَقبَع ذلك الطفلُ بكلِّ أحلامه وأشجانه، يَنظُر ويَتَأمَّل ذاك السورَ العالي، الذي بَنَىٰ بينه وبين العالم حَوَاجِزَ تَحْجُز جسدَه وتقيِّده ماديًّا وحركيًّا، ولكن كأنِّي أَرَاه يُبْحِر خَلْفَ تلك الجدران روحيًّا وذهنيًّا، نعم قد كان جسدُه أسيرًا لتلك القضبانِ، ولكنَّ فكرَه وروحَه خارِج هذه المنظومةِ، يُمارِس عُنْفُوانَ الطفولةِ وبراءتها، وبينما هذه الأفكار في رأس ذاك الطفل تتلاطَم، تَنطَلِق عيناه، ويَشْرَئِب رأسه عاليًا فوق ذاك السور، فعقلُه يخطِّط ويُعِدُّ العدَّة لينفِّذ، وجاءت ساعةُ الغفلةِ من السجَّان،

فاخترق الطفلُ القضبان، فيا تُرَىٰ لماذا هَرَبَ؟

كم نُعانِي من هذه التراجيديا الطفولية في هذه الأيام للأسف! وكم كبَّلْنا طاقاتِ أطفالِنا، وأغلقنا أمام أرواحِهم الأبوابَ، ورَصَدنا علىٰ تلك الأبوابِ سجَّانًا، هو في ذاكرةِ الطفل ووجدانه المعلمُ! وشيَّدنا سجنًا جبريًّا، هو تلك الأسوارُ القائمةُ بطوبِها، وأسوارٌ أخرىٰ في نفسِ الطفلِ؛ من ظلمةٍ، وقهرٍ، وغَفَلنا أو تغافلنا -وفي الاثنتين شرٌّ- أن الطفولة حريةٌ لا قيدٌ، وحياةٌ لا موتٌ، ونورٌ لا ظلمةٌ، فمتىٰ سنحرِّر أطفالَنا من السجونِ التي بنيناها لهم بأيدِينا؟ ولكن! قف يا كاتبَ الكلماتِ، هل هي دعوةٌ لحريةٍ دون انضباطٍ؟

لا تعجَل عليَّ يا قارئَ الكلماتِ، ما هذا أردتُ، ولا لأجله كتبتُ، كل ما أدعو إليه أن تكون الأسوار الداخلية بُنِيت بالقدوةِ؛ فيتحوَّل السور الإسمنتي إلىٰ حريَّة نفسية يَفرِضها الطفل علىٰ نفسه من باب الرقابة الذاتية، واحترام قيم العلم والعمل، والجد والأمانة، ويُضْحي بها المعلم محررًا بأفعالِه، ونزوله عند أطفاله لا يُمارِس عليهم دَورَ السَّجَّان، ولا يَترُكُهم دونَ رعايةٍ وتقويمٍ واتِّزان، هل اتَّضحت الصورة؟ ولك مني مزيد من بيان.

يقول شيخنا علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لي أخٌ كان كلَّما غَشِي المدرسةَ الثانوية، رقَّ جسمُه ونَحَل، وعَرَاه ذُبولٌ، فأعفيتُه منها، وأبقيتُه في الدار سنواتٍ ثلاثًا، لم أُلزِمه فيها مطالعةَ شيءٍ من دروس المدرسة، وإنما كنتُ أدلُّه علىٰ بعضِ كتب الأدب والتاريخ، مما لا يثقل عليه، ولا ينال من صحته، وما

تجزل فائدتُه، وتَعظُم المنفعة به، فقرأ فيما قرأ «تاريخ الطبري» كلَّه و«الأغاني» . . . فلما أزِفَ موعدُ امتحانِ الكفاءةِ منذ سنتين، قلت له: لو دخلتَ هذا الامتحانَ مع رفاقِك، فلعل الله يكتب لك النجاح، فأعطاني واستعدَّ للامتحانِ شهرًا واحدًا، ثم دخله، فكان من الناجحين، علىٰ رغم أن الناجحين في تلك السنة كانوا دون الثُّلُث، وعاد إلىٰ مثلِ ما كان عليه، حتىٰ كان امتحانُ الشهادةِ الثانوية (البكالوريا) هذه السنة، فدخله كما دخل الأوَّل، ونجح فيه أيضًا».

أشاهدتَ يا قارئَ كلماتي معلِّمَنا كيف حرَّر أخاه من قيودِ الجدرانِ: إسمنتية ونفسية، وتَبِعَاتها النفسية وأغلالها من النتاج الفكريِّ وخصوبته، ذاك الأخ الذي كان في الثانوية -وهي مرحلةٌ متقدِّمةٌ من الانضباط- فما بالُنا بالطفولةِ؟ لهذا وَجَب التنبُّه إلىٰ سُنَن الله في الطفولة، وكيفية استغلالها بالشكل الأمثل؛ لنُعِيد بناء لَبِنة هي أساس اللَّبِنات الأخرىٰ من شبابٍ وكهولةٍ، فكم من اليسير إصلاح المَسِير من أوَّله! ومن عسيره إصلاحه في قمة نشاطه (شبابه) وكهولته!

طبعًا ولا شكَّ لا أَدعُو من أشجانِ هذه الكلماتِ أن أطلق صوتًا نشازًا يقول بالانفلات الطفولي الكلي؛ بل علىٰ العكس أريدُ انضباطًا؛ ولكن بحريَّة، وإبداعًا؛ ولكن بتخطيطٍ ورويَّة، فكم سيكون رائعًا أن تكون المدرسة مِنْطَقةً مفتوحةً يتنقَّل فيها الطفل كالنحلة بين درس، ولعب، ولهو، وحتىٰ نوم! نعم، فالطفولة

عواصفُ بعدها ركودٌ، والاستجابة لهذه العواصف بتهيئة النشاطات السليمة لامتصاصها، سيؤدِّي حتمًا إلىٰ استغلالِ طاقتها لا تبذيرها، وهنا الفرق بين مدرسةٍ مفتوحةٍ جدرانُها لا يَكادُ يراها الطالب، وبين الشارعِ الذي يبدِّد طاقتَه باسمِ الحرية في خياله، وباسم الانحلال في خيالِنا!

بعد رياحِ العاصفة وامتصاصِها، لا أروعَ من أن يَجِد الطفل سريرَه بمدرستِه، فيحلم بها، لا يحلم بالهروب منها، فهذا الذي أقولُ ليس ضربًا من أَضْراب المستحيلِ لمن رأىٰ بعينِ ذاك الطفل النحيل، الذي ما زال يَنظُر خلف تلك الأسوار.

بعد أن عَرَفنا ما يؤرِّق طفلَنا وهمومه؛ لنعُدَ بذاكرتنا إلىٰ ينابيعِ النبوة، وكيفية تعاملها مع الطفولة، عن أنسِ بن مالكٍ، قال: «إن كانت الأَمَة من إماء أهل المدينة، لَتَأخذُ بيدِ رسول الله، فتَنطَلِق به حيث شاءت».

عندما انطَلقت تلك الجاريةُ بيدِ رسول الله ﷺ لم يَسألْها عن مرادها، ولم يعامِلها معاملةَ الغاياتِ والمقدِّمات والنتائج، بل ترك الطفولة تتحرَّك بحريَّة مطلَقة، لا لشيءٍ إلَّا ليُقرِّر لنا سنةً من سنن الله في جميلِ خلقِه بأطفالِنا، فكم لهذه السنة الربانية من أثرٍ لو استَقَينا منها منهجًا للتعامُلِ مع الأطفالِ في بعضِ الأحوال، بحيث لا نَطلُب تبريرًا لفعلِه، ويكفينا تبريرُ كلمةِ (طفل) فقط؛ لنعلَم أنَّها -بعرفِنا نحن معاشرَ الكبارِ- غايةٌ لجمالِ الكونِ واكتماله.

بعد المرور علىٰ الرؤية النبوية في التعامل مع مكنونِ النفسِ

في الطفل، أعرِّج علىٰ كلامٍ مهمٍّ جدًّا يَجِب علىٰ معلِّمينا اتِّباعه والسير عليه، يقول الدكتور عبد الكريم بكَّار:

منذ سنِّ الثامنة يبدأُ الطفلُ بالتساؤلِ عن العملِ الذي سيَرتَبِط به في المستقبل، ومنذ ذلك الحينِ تبدأ مسؤوليةُ المعلِّمين في مساعدةِ الطالب علىٰ التطلُّع، وإلىٰ الارتباط بأهدافٍ تناسِب طاقتهم ومواهبَهم، وهي إلىٰ جانب ذلك ممكِنةٌ، وذات معنىٰ، ومن كلام الدكتور نَستَشِفُّ دعوتَه إلىٰ عدم تكبيلِ الأطفال بقيودِ المناهجِ الدراسية، التي يَنْسَىٰ الطالبُ جلَّها بعد أول مرحلةٍ من مراحل الجامعة، وكما قال شيخنا علي الطنطاوي: «إنا نَحبِس التلاميذَ ستَّ سنين للدراسة الثانوية، ونحشو رؤوسَهم معلوماتٍ، أكثرها لا ينفع بالحياة، وماذا لعمري استفدت أنا - من دراسةِ المثلَّثات، والهندسة النظرية، وحفظ معادلات الكيمياء، وقوانين الفيزياء - في الكتابةِ، وتدريس الأدب، والقضاء، وهذه هي أعمالي في الحياة؟».

وبعدها يُتحِفنا شيخُنا المبارَك بطرحِه لمفتاحٍ يَفُكُّ به هذا القَيد الذي أثقل عقولَ أبنائنا من غير نتائج مرجوَّة، فيقول: إنَّ الدراسة العُليا هي المقصود بالذات، وما قبلها ثقافةٌ عامَّةٌ، هي بمكان مقدِّمة لها والتمهيد إليها، أفلا يستطيع الشابُّ الواعي دراسةَ الحقوق -مثلًا- من غير إحاطةٍ بدقائقِ الكيمياء، والفيزياء، والمثلَّثات؟

مقصدُ الشيخ واضحٌ جدًّا، حيث له رؤية نقدية في هذا الباب، ومن كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يتَخَاطر إلىٰ بالي: لِمَ نسجنُ أبناءنا

بغَصبِهم علىٰ دراسةِ موادَّ لا تَمِيل نفسُهم إليها؟

لماذا علىٰ الأديب أن يُحِيط: بالتفاضل والتكامل؟

وكم من مشروعِ أديبٍ أجهِض في مرحلةِ ولادتِه، بإبعاد الطفل ذي المواهب الأدبية عن هذا الحَقْل؛ بحجة سلَّة العلوم، والتي هي أشبه بسلة الهموم منها للعلوم؟

لماذا لا يُعطَىٰ التركيز علىٰ إزالة هذه الجدران، والانبثاق إلىٰ تجرِبة تعلُّمية تحرِّر فكرَ الطفل للإبداعِ، وتبنِي له أسوارًا من المعرفة بدل الأسوار من المواد المكدَّسة التي تُثقِل كتفَه وعقله معًا؟!

وما زال ذاك الطفل يتأمَّل لعل هناك مخرجًا.

وفي ختامِ كلماتي التي هي بوحٌ من قلمِ القلبِ الذي تَعِيش به ذاكرة ذاك الطفل، وهو ينظر إلىٰ السور، ويفكِّر كيف يخترِقُه، غيرَ مكترِثٍ لما بعد هذا السور من مزالقَ، أقلُّها نيران، وثقافة أشبه بثقافة القطعان دون راعيها، فهل شاركنا في نَمْذَجة هذه التراجيدية؛ علَّ أحدًا يجاوِب ذاك الطفلَ الذي أضحىٰ يكتب هذه الكلمات[1]؟

(١) المشاكل المتعلقة بنظام الاختبارات:

لو انطلقنا من سؤال جوهري هنا مفاده أنه هل من الصحيح أن يكون القياس لقدرات الطلاب المتنوعة والمختلفة حسب مقياس واحد؟

---

(١) httpv//www.alukah.net/social/0/40664/

أظنُّ أنَّ الإجابة متضمنة في السؤال، حيث إنَّ تنوع قدرات الطلاب أضف إلىٰ ذلك تنوع أوضاعهم الأسرية مع ما تحمله بيئتهم من إشكالات تجعل حصر قدراتهم في تقييم واحد عبارة عن مسألة غير منطقية، بل يتعدىٰ الأمر أنَّها غير منطقية لنصل إلىٰ أنها غير عادلة، بالأساس، فكيف للطالب الذي يتمتع بقدرات عقلية تفوق أقرانه مجملًا في التحليل وما شابه أن يقاس بطالب ينزع نحو الصور الجمالية ومحبة الشعر!

حسب خبيرة التعليم أنِّي كاميناز (Anya Kamenetz)؛ فإنَّ إشكالية الاختبارات تتركز في الآتي:

(١) عدم التركيز علىٰ المهارات المهمة والاعتماد علىٰ الأسئلة المغلقة كالاختيار من متعدد بوضع دائرة، مع أنَّ عدد كبير من الأبحاث أثبت أن طريقة حل المشكلات (problem solving)، ومهارات الاتصال الكتابي والشفوي، والتفكير النقدي أهم بكثير من هذه المهارات، بالإضافة إلىٰ العوامل الشعورية مثل التحفيز والقدرة علىٰ التعاون= كل هذه العوامل هي عبارة عن عوامل مهمة للنجاح الأكاديمي، وكل هذه العوامل تقريبًا مهملة في أنظمة الاختبارات حتىٰ الحديثة منها.

(٢) الاختبارات تضيع الكثير من الأوقات بالإضافة إلىٰ الكثير من الأموال:

تقريبًا (٢٥%) من السنة الدراسية تذهب للاختبارات الورقية،

وهذه تكلفة لو حسبناها علىٰ مدار السنة لكانت تكلفة كبيرة جدًا، أضف إلىٰ ذلك كم الأموال التي تصرف من قبل علىٰ الاختبارات، فتكلفة الطالب الواحد في أمريكا (١١٠٠) يضاف لها توابع خاصة مثل الدروس الخاصة أو الوسائل التعليمية التي تساعد في وضع الاختبار.

(٣) الاختبارات تجعل الطلاب أكثر كرها للمدرسة:

القليل من القلق يعتبر أمرًا صحيًّا ومفيدًا للتحفيز، الكثير منه يعتبر مدمرًا ويخلق نوعًا من القلق المرضي، وممَّا يؤكد ما قلته آنفًا ما ذكره زيندر شيرمان حيث ذكر في كتابه الفضول المدرسي أنَّ (gao kao)، وهو اختبار الثانوية العامة الصيني هو السبب الخامس من أسباب الانتحار في مدينة بيكين والسبب الأول بين طلاب المدارس هناك[١]!

(٤) إنَّ نظام الاختبارات يحصر عملية التعليم في الاختبار:

ولأنطلق من قصة شخصية مع طلابي، دخلت الكلية التي أدرِّس بها مادة التسويق وبعد برهة من كسر الجليد والتعود بيني وبين طلابي كان الطلب الجماعي من كل الطلاب ذكيّهم والأقل ذكاءً، المهتم والمهمل= يا أستاذ نرجو أن تحدد لنا ما لذي سيأتي في الاختبار، كان الاختبار عبارة عن عشرين صفحة ويعطىٰ الطالب

(١) The Curiosity of School: Education and the Dark Side of Enlightenment, by Zander Sherman, p٥٧, soft copy

قريب الأسبوع لها ثم يريد تحديدًا، إلىٰ ماذا يشير هذا؟

قطعًا يشير أنَّ عملية التعليم تحورت من تعليم مفاهيم ومهارات إلىٰ تعليم من أجل أن أنهي الاختبار؛ لهذا فإنَّ أنظمة الاختبارات الحديثة تقبع تحت منظومة تحبس القدرة الذهنية والتعليمية عند الطلاب في صفحات قليلة ليختبر بها الطالب، ثم عندما يخرج من باب الصف يرمي ما تبقىٰ له من معلومات في أقرب سلة مهملات.

(٥) من إشكالات نظام الاختبارات الحديثة أنَّه يشجع علىٰ الغش كثيرًا، وما صدمني أن بعض الطلب كان يسهر ليل نهار ليكتب ورقة غش صغيرة قد تأخذ منه يومين ولا يفكر أن يشغل نفسه بالدراسة بدلًا من الغش، إن الغش قد يتحول إلىٰ ثقافة بل قد يرمز إلىٰ معنىٰ من معاني الرجولة التي يتبارز بها الطلاب فيما بينهم.

*** فواصل:**

ما زلنا نحاول الإصلاح وبعد أن انتهينا من البيئة المدرسية الداخلية بعمومها ننتقل لمجموعة من الفواصل التي تشكل حلولًا بعضها مألوف وأغلبه ابتكاري وتجديدي.

(١)

*** الاستفادة من البحوث العصبية في التعلم:**

كثير من الألفاظ نتجنبها؛ لأنَّها حُملت حمولة سلبية وتم الضخ العدائي ناحيتها، فلفظ الغرب مثلًا نحن أهل المشرق نتخذ منه الجانب السلبي ولا نتعامل معه بعدل حتىٰ ينسينا ذلك الخير الموجود في تلك التجربة العميقة من تجارب البشرية، وقد أصدم القراء إن قلت: إنَّ الغرب يتفاعل مع مشاكله ويحاول حلها بطريقة أفضل بكثير ممَّا نتعامل معها نحن المسلمين بشكل عام والعرب بشكل خاص، وهنا لا بُدَّ أن أذكر الحديث الذي في «**صحيح مسلم**» من قول المستورد القرشي عندما كان عند عمرو بن العاص، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقوم الساعة والروم أكثر الناس، فقال له عمرو: أبصر ما تقول، قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال: لئن قلت ذلك إنَّ فيهم لخصالًا أربعًا: إنَّهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك.

يعتبر هذا من أفضل التأصيلات في كيفية التعامل مع الآخر بعدل واستثمار ما عنده من خير ونور وبركة، ومن هنا لا بُدَّ أن

أشير إلىٰ مصطلح تم استنفار التاريخ الفلسفي حتىٰ الإسلامي (الكلامي والفلسفي خصيصًا) ضده وهو المادية أو الجسمية، تكمن بداية المشكلة مع ديكارت، «فلا بُدَّ من ملاحظة أنَّ ديكارت لما وضع العقل كمرجعية معرفية بمعناه كجوهر مفكر قادر علىٰ بلوغ الحقيقة بمفرده وبمعزل عن أي سند ما ورائي؛ فإنَّه - سواء وعىٰ ذلك أم لم يع - أرسىٰ لأوروبا عقيدة جديدة فيها تأليه العقل ورفعه إلىٰ مقام المطلق»[1].

لم يتوقف الأمر عند تأليه العقل وإعطائه المقام المطلق بل تم فصله عن أي معطىٰ جسدي أو مادي أما عملية الاتصال بين ذاك العقل والجسد، فكانت تلفيقًا عن طريق الغدة الصنوبرية، وتم النظر للمادة عمومًا علىٰ أنَّها شيء منحط لا بُدَّ أن نزهد به، واستمرت هذه الحمولة طويلًا مع كانط والفلاسفة المثاليين من بعده، وفي تلك الأثناء وبعدها أتىٰ مجموعة من الفلاسفة التجريبيين والماديين ليرفعوا قيمة المادية فوق كل شيء فأنتجوا نوعا من المادية الساذجة التي تنظر للعقل علىٰ أنَّه صفحة بيضاء كليًا، الخلاصة أنَّه بتسلط العقلانيين وضعف تقديم التجريبيين ضاعت أهمية المباحث الجسدية والمادية والمخ في العمليات العلمية وأثر روابط الخلايا في عملية التعلم والعكس إلىٰ أن جاء هذا العصر وأعاد تفعيلها بصورة قوية جدًّا.

---

(١) «**في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة**»، الدكتور الطيب بوعزة، نماء، (ص/١٦).

والدماغ هنا وتركيبته المادية يلعبان دورًا إجرائيًّا لا كفائيًّا؛ والفرق بين الشرط الإجرائي والكفائي أنَّ الشرط الكفائي يعتبر لوحده سببًا كافيًا لتعليل عملية الوعي والتعلم عند البشر، فإن كنت أعتقد أنَّ الخلايا لوحدها قادرة علىٰ إنتاج عملية التعليم فهذا وهم لا أكثر؛ إلَّا أنَّها جزء أساسي من عملية الوعي والتعلم؛ فهذا حق وهو المقصود من الشرط الإجرائي؛ أي إنَّه مع عوامل الأخرىٰ ينتج عملية الوعي، فالبحوث اليوم دقيقة عن علاقة الدماغ بعملية التعليم وهذه البحوث تساعد في إنهاض عملية التعلم والوعي، ومن هذه الشروط الأخرىٰ الشرط الاجتماعي، فالإنسان لا يكون إنسانًا إلَّا بين بني جنسه، فالشرط الاجتماعي هو شرط أساسي يتشارك مع الشرط المادي ليكون حياة الناس وعليه نحاول أن نتبين كيفية سبل التعلم هنا دون الغرق في مادية ساذجة أو مثالية حالمة.

تمر عملية التعلم عبر اتصال داخل النظام الإنساني، لهذا النظام مدخلات كالأذن ومخرج كالفم وعند الدخول في عملية التعلم يبدأ عمل الخلايا العصبية من خلال مخرجات تسمىٰ محاور عصبية، ومدخلات تسمىٰ التشعبات، وكل خلية لها العديد من تلك التشعبات المتفرعة وتحمل المستقبلات التي بدورها تتلقىٰ المعلومة، وفي أثناء اتصال الخلايا العصبية تحدث عمليات كيميائية عديدة، تنشط هذه المواد الكيميائية عن طريق عملية التعلم وتزيد قوة الروابط العصبية بين هذه الخلايا من خلال عمليات كيميائية وكهربائية متعددة وهذه العملية تساعدنا علىٰ زيادة قدرتنا

العلمية، فبهذه جدلية تتقوىٰ الروابط وعمل الخلايا من خلال عملية التعلم، وتصبح عملية الفهم والإدراك أقوىٰ كلما قويت هذه الروابط العصبية مما يسهل عملية التعلم.

*** المسار الحسي الحركي:**

إنَّ نظام الاستقبال الذي يستقبل به الطلاب المعلومات يمر عبر نظام المدخلات المتمثل في البصر والسمع واللمس، ويستجيبون لهذه المدخلات من خلال نظام المخرجات كالتحدث والكتابة والحركة، وهنا لا بُدَّ من الأخذ في عين الاعتبار أن هناك مواطن ضعف في معالجة المخ الحسية للمعلومات، فقد تعتقد أنَّ الطالب معك ويكون الطالب في عالم آخر، وليس في الصف أصلًا، وأيضًا إنَّ الطالب المستمتع في وقت المحاضرة تكون حواسه ذات كفاءة أقوىٰ من الطالب الذي يدخل قاعة الدرس محبطًا ونتيجة لهذا الكسل في الحواس؛ فإن استجابة المخ أو الدماغ تكون ضعيفة تبعًا لضعف الاستجابة الحسية.

ولتجنب هذا الإشكال ينصح دائمًا باستخدام أكثر من طريقة للتعلم؛ لإيقاظ العنصر الحسي وسلامته حتىٰ يستطيع الدماغ الاستجابة بشكل سليم ومناسب.

*** إشكالية غياب التحدث أو إهمال مسار المخرجات:**

يتطلب التحدث أمام الجمهور جمع المعلومات من عدة مراكز في المخ، مثل استجماع الأفكار وتنشيط القشرة الحركية الأمامية

للمخ وصياغة الكلمات، ورغم أنَّنا نستخف بأهمية التحدث داخل الفصل؛ إلَّا أنَّه يتطلب العديد من العمليات العقلية العليا التي لا بُدَّ أن تتم معا في نفس الوقت، ولكي يتحدث الطالب لا بُدَّ من تنشيط مسار المخرجات التعبيرية لديه، فلا يمكن أن يكتفي المعلم باستماع الطلاب إليه مرارًا وتكرارًا، ثم يتوقع منهم أن يصبحوا قادرين علىٰ التعبير عن أفكارهم من خلال الكلام وليس من المفترض أن يقضي المعلم معظم ساعات التدريس في تقديم المعلومات للطلاب عبر مسارات الاستقبال الموجودة لديهم، أي عبر حاستي السمع والبصر بل يجب أن يتيح لهم خلال هذا الوقت أن يستعرضوا معلوماتهم تحدثًا وكتابة.

من خلال تفعيل جميع المسارات الحسية في عملية التعلم نخرج بالكثير من الفوائد أولها تعظيم تفاعل الروابط العصبية التي تعود بالخير علىٰ عملية التعلم ككل، ثم يساعد هذا الطالب أكثر علىٰ الانخراط التفاعلي في العملية التعليمة ممَّا يجعلها تجربة حياتية أكثر منها تجربة آنية، أضف إلىٰ ذلك أنَّ من أهم أساليب التعلم تأثيرًا وترسُّخًا هي التي يشارك فيها الطالب كمتحدث أو مدرس للمادة، وهذا كله يصب في تحسين مساراته الحسية وتقوية روابط التعلم لديه.

وهنا لا بُدَّ أن نشير إلىٰ بحث جون جود A Study of Schooling: Some Findings and Hypotheses الذي قام به في (سنة ١٩٨٣م) وجد أنَّ المعلمين في أمريكا يتكلمون فيما يقارب

(٨٥%) من وقت الحصة الدراسية.

بينما المعلمون في فنلندا يملكون ما يقارب (٤٠%) من وقت الحصة والباقي يكون علىٰ الطلاب، وهذا الفرق يظهر جليًّا بين تفوق الطلاب الفنلنديين وحصولهم علىٰ المراتب الأولىٰ عالميًا بينما تقبع أمريكا في العشرينات.

يضاف إلىٰ المسار الحسي المسار الحركي، وفي الأطفال خصوصًا تعتبر الحركة هي القاعدة الأساس في تعاملهم مع البيئة المحيطة من حولهم، وقتل هذا الفعل الفطري في نفوسهم يقتل عملية الفضول التي يمارسونها من خلال الحركة، والحركة هنا مهمة علىٰ مسارين متتابعين، فالحركة مهمة لبناء نظام سليم للجسد الذي هو الشرط الأساسي لسلامة الاستقبال المعلوماتي عن طريق الحس، فإذا أهمل الجسد يتم إضعاف الحواس ومن ثم تضعف الاستجابة.

ثم إنَّ النظام الحركي يستوجب نشاطًا متزايدًا للتفاعلات العصبية والكيميائية في المخ ممَّا يقوي الروابط بين خلايا المخ والدماغ فتصب مباشرة في مصلحة التعليم التي تتحسن كلما تحسنت هذه الروابط، وكما أنَّ للعقل ذاكرة؛ فإنَّ للجسد ذاكرة تتعود الخشونة أو النعومة وتتكيف مع الطبيعة والأمراض وما شابه فأي إهمال لهذه الذاكرة ستضعف ويضعف تبعا لذلك تواصلها مع الدماغ، مما يضعف عملية التعلم التي تعتمد علىٰ كل خلية من خلايا الدماغ وخلايا الجسد.

كيف يمكن أن نطور المسار الحسي الحركي؟

(١) من خلال استخدام الصور ومقاطع الفيديو لمساعدة الطالب علىٰ ربط المفاهيم والمفردات اللغوية الجديدة، فعلىٰ سبيل المثال لو أردت تعليم الطلاب أهمية التوازن من الممكن أن أعرض لهم فلما ألمانيا صامتا حاز علىٰ جوائز عديدة للأفلام القصيرة اسمه (Balance)، تتمحور فكرة الفلم حول أنَّ هناك أربعة أفراد يقفون علىٰ حواف مربع في الفضاء الخالي، فإذا أراد أن يتحرك أي أحد منهم اختل التوازن، وكان في وسط هذا المربع صندوق هو أشبه ما يكون بالكنز، فتنبه أحدهم أنَّه يمكن الوصول إلىٰ الصندوق باستفزاز الطاقم، فتقدم خطوة وهنا تقدم من أمامه خطوة ليعدل الكفة، ثم، مارس فعله هذا إلىٰ أن ألقىٰ واحد منهم من المربع خارجًا، فأصبح هذا المتحرك يخرب النظام والاثنين يعدلانه واستطاع أن يطح في الثاني ومن ثم الثالث وبقي هو والصندوق في نفس الجهة فثقلت هذه الجهة حتىٰ مال هو والصندوق وأشرفوا علىٰ الوقوع؛ مما اضطره أن يتجه في الاتجاه المعاكس للصندوق ليعدل الكفة، وهكذا لم يستطع أن يجلب الصندوق وخسر أنسه من أصحابه وخسر الصندوق، من خلال هذا الفلم قد أعلم الطلاب أهمية التعاون وأهمية التوازن وكلها في هذا الفلم الجميل[١].

---

(١) هنا رابط الفيلم:

https://www.youtube.com/watch?v=1CTesYaduBA

(٢) إتاحة الخيار:

ونقصد في إتاحة الخيار هي وضع الكرة في ملعب الطلاب، بمعنىٰ أنَّني إذا أردت شرح فكرة فأطلب من الطلاب الطريقة المناسبة لتعليم هذه الفكرة هل عن طريق الإلقاء، أم عن طريق فرق العمل، أم عن طريق تجربة عملية حياتية، دعك من أن هذا بحد ذاته يرفع الاستجابة الحسية عند الطلاب؛ إلَّا أنا ما يهمني هنا هو استفزاز قدرات اتخاذ القرار في حياة الطلاب، إن عملية اتخاذ القرار تعتبر من العمليات العليا التي يقوم بها الفرد علىٰ المستوىٰ المادي والمستوىٰ الاجتماعي، وعندما تضع الطالب بشكل متكرر في تجربة يتحمل من خلالها مسؤولية اتخاذ القرار= فأنت بشكل آلي تساعده علىٰ تطوير مسارات الخلايا العصبية في دماغه وتستفز تفاعلها إلىٰ أعلىٰ الدرجات.

(٣) تفعيل نظام المجسمات:

أي مادة تستطيع من خلالها كمعلم استغلال قيمة المجسمات فلتفعل، ولنضرب مثالًا حتىٰ يتضح المقصود، في مادة الجغرافيا تستطيع أن تفعلها من خلال ألعاب الرمل، والآن هناك مجموعة من المختصين في الرسم علىٰ الرمال، بل قد يكون أحد طلابك فتستفيد منهم، إذن ليتعلم الطلاب الخريطة والمناطق من خلال ألعاب الرمل وهذا سيساعدهم علىٰ التذكر قطعًا؛ لأنَّه يعتمد علىٰ الجانب البصري الذي هو أسهل من حيث التذكر، وسيعزز هذا

الجانب الحركي، حيث سيكون الشرح في ساحة رملية، أو ما شابه، فتتعزز القيم الحركية واللمسية عند الطالب، فننقل عملية التعلم إلىٰ مراحل من المرح والاستفادة.

قد يقول البعض إنَّ هذا مكلف، وهنا شرفت في النظر إلىٰ كيفية بناء بركة رمل في مركز رعاية خاصة، والأمر ليس أبعد من جلب أنابيب مياه كبيرة الحجم، ثم تركيبها بشكل مستطيل، ثم في النهاية جلب الرمل لها، العملية ستكلف أقل بكثير ممَّا يصرف علىٰ المدارس من الناحية التكنولوجية وهو لإضاعة التعليم أقرب.

*** المسار الانفعالي (بين اللوزة والحصين):**

إنَّ اللوزة العصبية القابعة في منطقة عميقة في المخ تستقبل المدخلات من جميع الحواس، فتعالج الانفعالات وتخزن الذكريات، وفي العادة تنشط اللوزة عند التعرض للخطر أو الضغط وفي هذه الحالة طبعًا تعوق عملية التعليم؛ لأنَّها تستفز حواس الجسم نحو خطر معين، لكن للوزة دور مهم آخر، وهي التعرف علىٰ الانفعالات المبهجة التي تعمل نوع من الراحة للجسم عند استماع مقطع طبيعي، أو آية قرآنية ممَّا يسعد الذهن علىٰ الراحة والاسترخاء.

أمَّا الحصين والذي غالبا ما يرتبط بالذاكرة يتأثر تحت الضغوط الشديدة التي إن طالت لوقت طويل تتسبب في ضموره وتقلص حجمه.

يفيدنا هذا الكلام في إدارة ضغوطنا بطريقة سليمة في الحياة، فلا تخلو حياة إنسان من ضنك يتخللها فقد حبيب، أو ضياع هدف، وتخاصم مع قريب، وإهدار مال يتقلب الإنسان في كدر علىٰ كدر، فإن كنا نريد حياة شبه متزنة لهذا الإنسان القلق لا بُدَّ أن نحاول أن ندير ضغطه وهنا استحضر الحديث النبوي الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا تغضب»، فردد مرارًا، قال: «لا تغضب»؛ رواه البخاري.

وجاء في شرح الحديث قول ابن التين رحمه الله: جمع في قوله: «لا تغضب» خير الدنيا والآخرة؛ لأنَّ الغضب يؤول إلىٰ التقاطع ومنع الرفق، وربما آل إلىٰ أن يؤذي المغضوب عليه، فينقص ذلك من الدين[1].

كما قلنا في السابق إنَّ شروط الوعي الإجرائية كثيرة منها الشرط الاجتماعي والشرط المادي، ويتعلق شرح ابن متين في الشرط الاجتماعي، حيث إنَّ الغضب واستنزاف المشاعر لحدها الأعلىٰ قد يؤول إلىٰ التقاطع، والتقاطع هنا يمنع التواصل والتفاعل الذي هو شرط أساسي في عملية التعلم الحياتي، فأسرع الناس وأكثرهم غضبًا= أقلهم تعلمًا؛ لأنَّ الغضب يضع حواجز بين الشخص وبين الناس، فيضعف عملية الاتصال والتفاعل.

ثم من الجانب الآخر إنَّ الغضب يستفز كوامن الدماغ المادي

---

(١) «فتح الباري»، (٥٣٦/١٠)، (رقم/٦١١٦).

ويستنزفها، فيجعل الشخص وكأنَّه دومًا في حالة خطر وحرب، ممَّا يؤثر علىٰ اللوزة ويضعف الحصين ويعظم الخلل علىٰ المستوىٰ الانفعالي، فالغضب وما يشبهه من استفزازات شعورية عبارة عن مبيدات لعملية الوعي والتعلم فوجب علينا إدارتها بهذا التوجيه النبوي الشريف.

من أكبر العوامل التي تعيق العملية التعليمية هو عامل القلق، والقلق يستنزف خلايا الدفاع المسؤولة عن تحفيز الإنسان للخطر، فعلىٰ قدر الأهمية لهذه الخلطة الكيميائية إلىٰ أنَّها إن زادت عن حدها تصبح عامل مثبطًا لعملية الإدراك والتعليم، فبمجرد أن تتخذ حواس الإنسان وضعية الخطر وتتنبه لا يستطيع الإنسان توجيه تركيزه نحو ما يقلق فلا يستطيع التعلم وتفقد القدرة علىٰ توجيه الفكر وتضعف الذاكرة في الأساس؛ لأنَّ الشعور بالخطر قد يغيب الذهن إذا ارتفع ارتفاعًا شديدًا.

فيما يتعلق بالمدرسة تشكل الاختبارات والأيام الأولىٰ للدوام المدرسي نوعًا من القلق والتشتت لدىٰ الطلاب، وعلىٰ المدرس في هذا الباب أن يحاول التقليل من هذه المشاعر أو معرفة كيفية التعامل معها، فيستطيع المعلم علىٰ سبيل المثال أن يُعلم الطالب علىٰ تقنية التنفس، والمقصود بها التنفس ببطء ليعكس حالة الخوف؛ فالخائف طبيعة يتنفس بطريقة سريعة وترتفع دقات القلب عنده وتتسارع، وعملية التنفس البطيء تعطي شعورًا بالأمان وتساعد الجسد علىٰ إرسال إشارات هادئة للدماغ ممَّا يخفف عملية القلق.

ويستطيع المعلم أن يكسر القلق في جانب الاختبارات من خلال وضع سؤال زائد تحسب علامته في حالة الإجابة ولا تخصم في حالة عدمه، فهنا تعلو قيمة فرصة النجاح عند الطالب فتساعده علىٰ إدارة قلقه، ومن الوسائل المهمة التي لا بُدَّ للمعلم من أن يستخدمها = وسيلة الوضوح، حيث إنَّ القوانين التي يضعها المدرس للغرفة الصفية كلما كانت بسيطة وعادلة وتصب في مصلحة الطالب كانت أقرب للوضوح ولروحه فلا يشعر بالقلق.

*** مسار المكافأة وأثرها علىٰ الدماغ:**

كان يعتقد علميًّا أنَّ هرمون الدوبامين هو هرمون السعادة، ولكن الآن تم اكتشاف هرمونات أخرىٰ تساعد علىٰ السعادة، مثل: السيروتون، والأوكسيتوان، والأندورفين يعزز إفراز الدماغ لتلك المواد سلوكياتنا الإيجابية، ويجعلنا ننتبه أكثر لتلك السلوكيات طلبًا لتجديد الشعور الذي يحصل نتيجة لإفرازها، فمثلا ترتفع هذه الهرمونات في حالة كسب المال أو الاستماع لمقطع هادئ كصوت البحر أو من خلال التفاعل الجميل مع الآخرين.

وهناك مكافأة عقلية يمتهنها البشر منذ القدم، وهي الاستعارات والقصص والأمثلة وهذه الثلاث مع الرواية تشكل قوام السرد، «ولا يشيد الوجدان الطفولي مثل أمرين: اللعب والسرد»[1]،

---

(١) «**ماهية الرواية**»، الدكتور الطيب بوعزة، عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ، (ص/٩).

نبدأ بالاستعارة التي باستخدامها ننشط شبكة عصبية واسعة النطاق في المخ، وحين تطرأ علىٰ ذهنك استعارة؛ فإنَّها تستدعي لديك معلومات بصرية وسمعية وغيرها من المعلومات الحسية، لذلك فإنَّ استخدام الاستعارة بربط المحتوىٰ الذي يتعلمه الطالب بالمعلومات القديمة التي يعرفها بالفعل يساهم في عملية الاستيعاب والتذكر.

أمَّا القصة فعلىٰ مدار التاريخ كان لها الأثر الفعال والبصمة المميزة في حفظ تاريخ الناس وتوجيه أخلاقهم من خلال القصص الهادفة، فهي تحفز العقل بصورة تختلف عن المعلومات والحقائق المباشرة، ومن ثمَّ تنشط المسارات متعددة الحواس والمسارات الانفعالية والاجتماعية.

مثل القصة تمثل الرواية عصب الأدب الإنساني الحالي، فهي تثير الخيال ممَّا يرفع من مستوىٰ تفاعل الخلية لما يحتاجه من نشاط للتخيل، وتخصب الذاكرة وتربطها في الزمان والمكان بشكل أوثق، وتوسع المدارك الاجتماعية وتساعد علىٰ فهم السياقات التي يعيش فيها البشر، أستطيع القول: إنَّ دون قراءة جيدة للروايات الحديثة؛ فإنَّنا سنفقد مصدرًا أساسيًّا في تأريخ وعي الحاضر من الناحية النفسية والاجتماعية وغيرها، ولو أردت أن أختار رواية وأرشحها هنا في هذا الباب لوصف حالة من حالات شعوبنا فسأختار يوتوبيا للأديب العبقري اللامع أحمد خالد توفيق، وتتميز في وصفها للطبقات البرجوازية في مصر ولكن برمزية عالية جدًّا بين المجتمع المحصن أو المجتمع المتحكم الذي تحميه شركات

الحماية، والمجتمع الدوني الذي تسيطر عليه العشوائيات في المباني والعشوائيات الفوضوية في الإنسان، ولو أردت اقتباس رواية من السياق الغربي لوقع الاختيار علىٰ مزرعة الحيوان لما تحمله من رمزية عالية في طريقة صناعة الطغيان وأدواته، إذا ليست الرواية إن كُتبت بطريقة صحيحة عبارة عن ترف من القول بل هي تجربة قد تكون اجتماعية أو تاريخية أو سياسية عميقة تستطيع أن تطوي بها التاريخ سريعًا وطريقة شيقة.

أما الأمثلة؛ فهي واقعية ومفهومة المعنىٰ، وبالتالي تحفز العقل، وهي أيضًا مدخل المسارات متعددة الحواس والمسارات الاجتماعية، فتنشط الخلايا العصبية الانعكاسية، ممَّا قد يعتبر آلية نتهيأ بها تلقائيًّا للتعلم من الآخرين[1].

---

(١) استفدت بشكل مباشر من تلخيص كتاب: «**التعامل مع عقول الطلاب عبر مسارات متعددة، رؤىٰ جديدة لتطوير التعليم**»، تأليف جانيت ناي زادينا، خلاصات التربية، (العدد ٥٤)، الشركة العربية للإعلام العلمي (شعاع)، بتصرف وإضافة واسعة.

(٢)

*** الفجوة بين التعلم والتطبيق:**

إنَّ هدف التعلم في الأساس هو إكساب واكتساب المهارات الحياتية، وأي معلومة لا تضيف شيئا لحياتي تعتبر هدرًا للوقت، وكثيرًا ما نشتكي من عدم القدرة علىٰ التوفيق بين ما تعلمناه من معارف وما تم تطبيقه من هذه المعارف، فهناك معارف كثيرة تعلم القراءة والكثير يشتكي من عدم القدرة علىٰ القراءة السليمة، وهناك الآن فيديوهات علىٰ الشبكة تعلمك الصيانة المنزلية بكليتها مع هذا ننظر للفيديو، ثم نرحل، ثم يطويه النسيان، ويمكن إجمال ذلك بعدة أسباب رئيسة:

(١) غياب الهدف من عملية التعلم، فالإنسان كما تقدم شغوف بالتعلم وعلىٰ قدر ما لهذا الشغف من قيمة؛ إلَّا أنَّه قد يوقع الإنسان في الذئب الهائج الذي يبتلعه دون رحمة، فينتقل من معلومة إلىٰ معلومة دون وعي كافٍ لأهمية هضم المعلومة، وإذا أردنا أن نرشد قارئ الكتاب لطريقة جميلة وبسيطة لكتابة الهدف فسنتجه لفكرة الهدف الذكي أو كيفية كتابة الهدف الذكي (SMART Goal) ينقسم الهدف الذكي إلىٰ خمس كلمات حسب الأحرف الإنجليزية:

- (S = specific)، أي: أن يكون الهدف محددًا ودقيقًا، فعلىٰ

سبيل المثال ولننظر إلىٰ تعلم الإنجليزية كهدف نريد تحقيقه، فقولي عند وضع الهدف: (أريد تعلم الإنجليزية)= هدف غير محدد، إذًا كيف يصبح الهدف محددًا؟ يصبح محددًا إن قلنا: أريد تعلم اللغة الإنجليزية في المركز البريطاني الموجود في جبل عمان.

- (M= measurement)، أي: أن يكون الهدف قابلًا للقياس ويكون هذا بإعطائه بعدًا كميًا، فيصبح الهدف: (أريد تعلم اللغة الإنجليزية في المركز البريطاني الذي في جبل عمان من خلال دراسة عشر دورات مع دورة مكثفة تختص في الآيلتس).

- (A= attainable)، أي: أن يكون الهدف قابلًا للتحقيق؛ فبضاعة تعلم اللغة الإنجليزية في أسبوع وما شابه ترمىٰ في أقرب سلة للقمامة؛ لأنَّها عبارة عن هدف غير قابل لتحقيق، بل هو هدف يتم به عملية نصب ولعب علىٰ مشاعر الناس المحتاجة لتعلم اللغة.

- (R=reliable) أن تستطيع الاعتماد علىٰ هذا الهدف = بمعنىٰ أن يحقق لك شيئا فارقًا في حياتك، فيصبح الهدف: (أريد تعلم اللغة الإنجليزية في المركز البريطاني الذي في جبل عمان من خلال دراسة عشر دورات مع دورة مكثفة تختص في الآيلتس؛ ليفتح لي مجالًا للهجرة أو ليفتح لي أبوابًا للمنح التعليمية).

- (T= time frame)، أي: أن يكون في إطارٍ زمنيٍ محدد، فلا نتركه مفتوحًا، وعليه يصبح الهدف في شكله النهائي: (أريد تعلم اللغة الإنجليزية في المركز البريطاني الذي في جبل عمان من خلال دراسة عشر دورات مع دورة مكثفة تختص في الآيلتس؛

ليفتح لي مجالًا للهجرة أو ليفتح لي أبوابًا للمنح التعليمية، علىٰ أن يتحقق هذا في سنتين علىٰ الأكثر)

الآن ما فائدة هذه اللفة الطويلة؟ بالمختصر إن هذه اللفة الطويلة تضعك علىٰ أرضية صلبة لتعود بعد سنتين وتقيم أين وصلت من هدفك هذا في المقام الأول، ثم تعطيك الدافعية القوية لتحقيق الهدف؛ لأنَّ هدفك يمكن الاتكاء عليه فهو يفتح لك أبواب المنح أو الهجرة، وفي المقام النهائي هذا الإطار عبارة عن تنظيم لبعثرة أفكارك ووضعك علىٰ طريق معبد لتحقيق الهدف، لا يخدرك في هدف عام تنام عليه وبعد سنتين تستفيق ولا تعود إلّا بخفي حنين= وهذا يصب مباشرة في ردم الهوة بين التعليم والتطبيق.

*** كيف يمكن تفعيل هذه الاستراتيجية في العملية التعليمية؟**

أولًا: من خلال تعليمها للطلاب في بداية كل فصل دراسي؛ بحيث نفصل ماذا نريد من المادة علىٰ طول سنة، ثم نحاسب أنفسنا مع الطلاب في نهاية الفصل.

ثانيًا: أن نكلفهم بكتابة أهداف خارج نطاق المدرسة لنضمن اكتسابهم لهذه القيمة الاستراتيجية في المعرفة وتعميمها علىٰ الحياة الواقعية.

ثالثًا: متابعة سير الطلاب في وضع أهدافهم الداخلية -أي التي داخل المدرسة- أو الخارجية، أي: في الحياة الواقعية، ولا تتعجب إن كان هذا دور المعلم؛ فإن لم يكن دور المعلم في

ربط الطالب بحياته خارج أدور المدرسة فهذا دور من؟ وفي هذا أذكر قصة ذكرت في كتاب تعلم . . . وافعل حيث ذكر مؤلفو الكتاب أنَّ أحد المؤلفين كان يهتم بأثر ما يكتب علىٰ قرائه فكان يسأل العديد منهم بعد أن ينهوا كتبه هل طبقوا المعلومات التي فيها فكانت الإجابة مجملًا لا، وفي أحد قراءات الرجل تعرف علىٰ رجل الأعمال الشهير فيل موراي وأكثر ما جذبه في موراي أن دوراته التدريبية والمعرفية غيرت فعليًا حياة الناس، فذهب مؤلفنا لموراي للاستفسار فكان الجواب كالآتي:

التكرار التكرار، وعندما أشدد علىٰ التكرار بهذه الطريقة فأنا أقصد التكرار المتباعد= إنَّه أسلوب تعليمي يجعلك لا تكتفي بتعليم شيء ما من جلسة واحدة فقط بل يقدم لك المعلومة علىٰ نحو دوري ومتكرر، حتىٰ تترسخ في ذهنك، السبب في هذا أنَّ الجلسة الواحدة تحدث في المرء تأثيرًا مؤقتًا، هذا إن حدث من الأساس؛ لذا يجب تكرار المعلومة أكثر من مرة وعلىٰ فترات متباعدة حتىٰ يمكنها أن تحدث تأثيرًا دائمًا علىٰ المرء[1].

فمن خلال تكرار الهدف الذكي وتطبيقه لهم، ثم جعلهم يطبقونه علىٰ مقرراتهم الدراسية ثم في حياتهم الخارجية والواقعية تكون قد أكسبتهم فعليا المهارة اللازمة والمنهجية السليمة نسبيا

(١) «**تعلم . . . وافعل، كيف تضع معرفتك موضع التنفيذ**»، كين لانشارد، وبول ميسر، وديك رو، خلاصات كتب التربية والتعليم، (العدد ٤٨)، الشركة العربية للإعلام (شعاع)، (ص/٢).

لكتابة الهدف، فلا تكون هذه المنهجية حصة ذهبت مع طرقة الباب وخروج المعلم بل تترسخ في أثناء متابعة المعلم لطلابه وفرحه بإنجازهم عن طريق هذه المنهجية.

وللأمانة العلمية إنَّ نموذج (SMART Goal) عليه مجموعة من الملاحظات والانتقادات الجديرة بالتأمل، ويمكن معرفة هذه الاعتراضات بل وتطويرها إلىٰ نموذج آخر يساعد نموذج الـ (SMART) في زيادة إمكانية توظيف المعلومات وتحويلها إلىٰ نطاق التطبيق، يسمىٰ النموذج الآخر نموذج (CLEAR)، ويعمل بنفس الطريقة التي يعمل بها الأول حيث نأخذ أول حرف من الحروف الإنجليزية وتكون المنهجية كالتالي:

(C= Collaborative)، أي: أن يكون الهدف متعاضدًا، ولنبين أهمية تعاضد الأهداف لا بُدَّ أن نشير إلىٰ أنَّ العلوم في هذه الأيام مترابطة بشكل مبهر ممَّا جعل كثير من الكتاب يُدخل مصطلح (integrated)، أي: الاندماج؛ فأصبح عندنا اندماج واضح بين علم اللغة وعلم الجينات مثلًا؛ فنظرية نعوم تشومسكي في النحو الكامل تقرر أنَّ هناك كفاية جينية تمكننا من اللغة التي ننطقها، وأدخل علم اللغة والجينات مع علم الأعصاب وتم دمجه في فلسفة الإدراك وهكذا، ما يهمنا الآن أن طبيعة هذا التفكير العلمي والذي يعتبر أنموذجًا جديدًا (Paradigm) سيساعدنا في وضع أهدافنا والاستفادة من استخدام هذا الأنموذج، فكيف نستطيع الاستفادة من هذا الأنموذج في كتابة الهدف؟

لاحظنا في النموذج السابق (SMART) أنَّه يعتمد علىٰ الهدف بشكل تجزيئي بحيث يفصله عن باقي الأهداف مجملًا لكن في نموذج (CLEAR) سيكون الهدف من تعلم اللغة الإنجليزية التعمق في فلسفة اللغة -مثلًا-، أو قد يشارك هذا الهدف في هدف آخر كوظيفة الترجمة، صحيح أنَّ هذا المفهوم قد يقترب من الاعتمادية في النموذج السابق (reliable)؛ إلَّا أنَّ الاعتمادية قابعة في أنموذج تجزيئي أما التعاضدي يتجه نحو طريقة تفكير تكاملية ستتضح أكثر مع تبيان باقي الأدوات في الأحرف.

(L=limited)، أن يكون الهدف مقنن الاتجاه والمساحة بحيث لا نتوسع كثيرًا، فلا نقول أريد تعلم الإنجليزية في سنتين، بل أحدد المجال أكثر، فعلىٰ سبيل المثال: أريد تعلم مهارة السماع في اللغة الإنجليزية خلال الأشهر الثلاثة الأولىٰ وبعد هذه الأشهر الثلاثة أنتقل لمهارة القراءة مع السماع= ودمج القراءة مع السماع ضروري هنا لنحقق الشرط الأول وهو التعاضد وهكذا نتبين كيف أن المنهجية التكاملية بدأت تفصح عن نفسها.

(E= Emotional)، إذا نظرنا إلىٰ النموذج الأول (SMART) نجد أنَّه لا يركز علىٰ المشاعر كثيرًا، وهذا تبعًا؛ لأنَّه ينطلق من نظرة أو أنموذج تجزيئي، لكن الهدف حسب نموذج الوضوح لا بُدَّ أن يرتبط مباشرة بمشاعري ومشاعر الآخرين من حولي، فيكون الهدف هنا أريد تعلم اللغة الإنجليزية لأشعر بالإنجاز وأفرح أبي وأمي وأتناقش مع زملائي بكفاءة؛ وهنا أيضًا يظهر التكامل،

فأصبح الهدف لا يقتصر علي وحدي، بل يدخل في سياق اجتماعي متكامل.

(A= appreciable)، أي: أن يحمل الهدف قمة عالية من الدقة والتقدير، بمعنىٰ أكثر أن يُقسم الهدف الكبير إلىٰ أهداف صغيرة تتعاضد مع بعضها البعض؛ لتصنع الهدف الكبير، فيصبح مقدرًا بشكل واضح، فعلىٰ سبيل المثال تعلم اللغة الإنجليزية سنفصله إلىٰ أربع مهارات: الكتابة والقراءة والسماع والمحادثة، وكل مهارة تفصل إلىٰ أهداف أصغر فالقراءة علىٰ سبيل المثال تقسم إلىٰ قراءة سريعة أو قراءة تدقيق أو قراءة سماعية بصوت عالٍ حتىٰ يتعود سماعي علىٰ الكلمات وهكذا، وأيضًا هنا يفصح المنهج التكاملي عن نفسه بأن يكون الهدف الكبير هو القلعة والأهداف الصغيرة هي تلك الأحجار التي نبني بها القلعة بروية وبصيرة.

(R= Refinable)، أي يمكن إعادة تعريفه وتعديله بمرونة إذا لاحظنا في نموذج (SMART)؛ فإنَّ الهدف مجملًا يتجنب عنصر المرونة، وهذا النقد الرئيس لنموذج الهدف الذكي، ولهذا تجد الهدف حسب نموذج (CLEAR) ينظر للواقع ككل، فيقر بتغير الواقع، فيجعل مساحة لتغيير الهدف بشكل جزئي، أو حتىٰ كلي حسب المتغيرات الكلية، فمثلا كثير من الناس كان يدرس الإنجليزية وتحول رأسًا للصينية؛ لأنَّها بنظره لغة القوة القادمة، أو آخر يدرس الفلسفة فتحول من الإنجليزية إلىٰ الألمانية لعظم تأثير الفلاسفة الألمان في الواقع الفلسفي العام.

وفي النهاية هذا لا يعني طبعًا أن نموذج (CLEAR) يحذف النموذج الأول، بل عليه نقديات تستحق النظر ومن أهمها صعوبة القياس، وكثير من الخبراء ينظر إلىٰ وجوب الأخذ بالنموذجين حتىٰ تكتمل الرؤية ونجمع بين خيريهما ونتجنب جوانب القصور في كليهما.

وبهذَين النموذجين نستطيع وضع أهداف تقربنا من الواقع ويمكن تطبيقها، ولا تجعلنا نعيش في عالم تعليم لا هدف له.

(٢) التكدس المعلوماتي:

إنَّ كثرة المعلومات مربِكة إذا لم تُنظم، وقد «صار الناس يكنزون المعارف الجديدة ويكدسونها أكثر ممَّا يهتمون بوضع استراتيجيات علمية لتطبيق ما تعلموه في حياتهم اليومية»[(١)]، وهذا عين الذئب الهيجلي الذي حذر منه الدكتور عبد الوهاب المسيري رَحِمَهُ اللَّهُ، إذا كنا نريد أن نضرب -مثلًا- واضحًا علىٰ هذا فنعود إلىٰ فيل موراي الذي أثر مباشرة في حياة كثير من الناس علىٰ المستوىٰ العلمي فقد ذكر «أنَّه اشترك في دورة مكثفة لتعلم الجولف في ثلاث أيام، والغريب بدلًا من أن تتحسن مهاراته؛ إذ بها تسوء أكثر وأكثر، فعند عودته لمنزله ومحاولة التدرب وحيدًا لاحظ أنَّه يحاول

(١) «**تعلم وافعل، كيف تضع معرفتك في موضوع التنفيذ**»، كين بالنشارد وبول ميير وديك رو في، خلاصات كتب التربية والتعليم، (العدد ٤٨)، الشركة العربية للإعلام العلمي (شعاع)، (ص/١).

تطبيق كل ما تعلمه من معلومات دفعة واحدة، وعندما تروا وحاول التطبيق بتدرج كان النجاح هو المنتظر بطبيعة الحال»[1].

والمدارس هنا هي العنوان الأكبر لتكدس المعلومات، فالطالب يجلس لسبع حصص تزيد أو تنقص في ضخ معلوماتي رهيب، لا يوجد بينه فواصل إلَّا عشر دقائق يخرج الطالب أسوأ ما عنده فيها، فبين صراخ وضرب وانفلات مبرر، بل مبرر جدًّا يكتسب الطالب جزءًا من حريته، لكن للأسف يستخدمها بشكل خاطئ.

ولتجنب هذه المشكلة لا بُدَّ من تقسيم الدرس إلىٰ حصص تفاعلية حيث يشترك الطالب في العملية العلمية لننتقل من المتلقي السلبي إلىٰ المشارك الإيجابي، فإن كنا ندرس مادة الاجتماعيات، فبدلًا من صف الكلام بصورة كئيبة نضع أمام الطالب مشكلة اجتماعية ونحاول أن نحللها ونؤسس بحثا عليها قد يفيد المجتمع الدراسي تطبيقيًا ويردم الهوة بين التعليم والتطبيق، ومثال علىٰ ذلك في مادة بحوث التسويق ألزمت الطلاب بكتابة الأسئلة بطريقة ليكرت (Likert scale)، وحاولنا أن نبني هذه الأسئلة بناءً علىٰ مشكلة تسويقية معينة = وكانت النتائج مرضية بشكل عام بالإضافة إلىٰ أنَّها كشفت لي أوجه القصور عند بعض الطلاب ممَّا يتطلب

(١) «**تعلم وافعل، كيف تضع معرفتك في موضوع التنفيذ**»، كين بالنشارد وبول ميير وديك رو في، خلاصات كتب التربية والتعليم، (العدد ٤٨)، الشركة العربية للإعلام العلمي (شعاع)، (ص/٢) بتصرف.

إعادة الشرح لبعضهم، وتكليف الطلاب المتميزين بإعادة الشرح لزملائهم، وبهذا نكسب علىٰ جميع الأصعدة من خلال التعليم التفاعلي ولا تكون المحاضرة عبارة عن صب في المعلومات دون فواصل تطبيقية.

ومن الأبحاث التي تؤيد ما نقول ما قام به ريتشارد أتكينسون وريتشارد شفرين في نظرية التحمل المعرفي: (Cognitive Load Theory)، حيث قررا أنَّه بما أن مساحة الذاكرة أو قدرتها علىٰ التحمل محدودة؛ فلا بُدَّ لأنَّ نستغلها بالشكل الأمثل بأن نعرض عليها مجموعة قليلة من المعلومات ونكررها حتىٰ ترسخ في الذاكرة طويلة الأمد، وبالإضافة إلىٰ الاستفادة من المعززات البشرية والسمعية في عملية التعلم؛ لأنَّها تعزز التذكر أكثر ممَّا لو اعتمدت علىٰ القراءة أو الإلقاء فقط.

ويمكن تقليل تكدس المعلومات من خلال التعلم بشكل أقل، وليس الإغراق في المعلومات، وهنا أذكر إجابة لإحدىٰ الطالبات في الفلم الوثائقي (الظاهرة الفنلندية)، حيث سئلت عن المال ونظرتها للكثير من المال فأجابت: ما الفائدة من جمع الكثير من المال إن كان سيسرق منك الوقت وما الفائدة إن جمعت الكثير من المال وكنت تكره عملك= هذا ليس رابحًا، في بعض الأحيان القليل يعني الكثير[1].

(١) The Finland Phenomenon documentary film , FROM 8 MUNITE TO 10.

وما يهمني من كلامها هو ذلك الوعي الذي تنطلق منه تلك الطالبة أن في بعض الأحيان، بل كثيرًا من الأحيان القليل يعني الكثير، فعلىٰ مستوىٰ الإنجاز -دائمًا- ما تكون المشاريع الكبيرة عبارة عن فخ التخدير، فيدخل الطالب أو الحالم في مثالية التغيير الكبير وينسىٰ أن هذا فوق طاقته فيُستنزف إلىٰ ما لا نهاية، ثم تحدث الصدمة النفسية الكبيرة ويدخل المسكين في طور اكتئاب طويل، أو يفقد شغفه في الإنجاز وعلىٰ كل الأحوال هذا قاتل للطموح وقاتل للطلاب، وهنا أتوجه لنصيحة نبوية نفيسة في قول رسولنا الكريم -عليه الصلاة والسلام- من حديث ابن نمير عن أبيه عن سعد ابن سعيد عن أم المؤمنين عائشة قالت: «**أحب الأعمال إلىٰ الله -تعالىٰ- أدومها وإن قل، قال وكانت عائشة إذا عملت العمل لزمته**». «صحيح مسلم».

ومن هذه النصيحة نستشف كم هي الأهمية في الاستمرار بالعمل، وإن كان صغيرًا علىٰ أن نطلق الأحلام ونعيش في وهمها، حتىٰ إذا جاءت لحظة الحقيقة وجدنا أنفسنا علىٰ رمال متحركة تبتلعنا، أما إن اتجهنا للأحلام الصغيرة، فنحن نبني علىٰ أرضية صلبة نضع لبناتها حبة بحبة ونعرف دقائقها ومخارجها ومنافذها.

ويمكن تطبيق هذه النصيحة في التدريس من خلال تقسيم الدرس إلىٰ أهداف أصغر كما فعلنا في نموذج الهدف الواضح (CLEAR)، ثم نكرر هذه المعلومات، ونعيد فحصها في الحصص المقبلة حتىٰ نطمئن لفهم جل الطلاب لها، ويا حبذا لو صمم

المنهج الدراسي كما صمم في فنلندا، فتكون ساعات الدراسة في أعلىٰ حالاتها أربع ساعات يتخللها الجانب العملي والتعليم من خلال المرح والتعلم من خلال الأقران، هذا النظام الذي ركز علىٰ القليل وأراح الطالب حصل علىٰ المرتبة الأولىٰ في نظام التعليم لأكثر من عشر سنوات، كما قلنا وسنكرر في هذا الكتاب.

(٣) التفكير السلبي:

بعيدًا عن دجل التنمية البشرية يذكر بلانشارد في محاورته مع الدكتور فيل موري قصة معبرة حيث قال المؤلف ذائع الصيت: كثيرًا ما أحسن والداي معاملتي، لكن نشأت خائفًا ومترددًا، وغير واثق من قدراتي، فسأل فيل المؤلف: كيف حصل هذا؟

فكانت الإجابة: ربما بسبب المدرسة، فمستواي الدراسي كان ضعيفًا مقارنة بباقي زملائي، وغالبًا ما كنت أمل من المدرسة، وهذا كان يعرضني للكثير من المشاكل، علاوة علىٰ ذلك لم أكن أجيد القراءة وبعض المدرسين كانوا يجبرونني علىٰ القراءة أمام الفصل كله وكان الأمر في غاية الإحراج والإهانة!

انظر كيف يصبح بعض المدرسين مجرمين بما تعنيه الكلمة من معنىٰ، فيورث بفعله غير المسؤول هذا الطفل أمراضًا نفسية مزمنة قد لا تزول معه حتىٰ يموت، لكن المؤلف هنا استطاع الهروب من هذه الشبكة العفنة، حيث يسر الله له معلمًا في دورة في القيادة المتقدمة وعندما رأىٰ تميزه طلب منه معاونته في تأليف كتاب

معين، ومنها اكتشف هذا المؤلف مقدرته الفذة علىٰ الكتابة وبعد ذلك أصبح له ما يقارب ٤٠ كتابًا[1]!

ولا أنسىٰ ذاك الإهداء الذي أهداه أدهم الشرقاوي صاحب كتاب كش ملك لمدرس اللغة العربية، حيث قال في إهداء الكتاب: إلىٰ مدرس اللغة العربية الذي قذف دفتر التعبير في وجهي وقال: ستموت قبل أن تكتب جملة مفيدة!

لقد عرفنا أدهم الشرقاوي وكتابه أما هذا المعلم سيموت في الأغلب دون أن نعرفه! لماذا نمارس هذا القتل بدم بارد علىٰ الطلبة؟ لماذا نحرق أعصابهم بالطاقة السلبية التي تقبع في عقولنا؟ ألم نسمع قول نبينا ﷺ في البخاري ومسلم حين قال: يعجبني الفأل الحسن والكلمة الحسنة.

أليس هذا توجيهًا مباشرًا نحو التعامل مع الدنيا بحسن دون زرع الأشواك في قلوب الطلبة أو قلوب الناس، ليتنا سمعنا وما قتلنا تلك البراعم التي سحقناها بحذاء مشبع بطين نفوسنا فما حصدنا إلّا هذا الواقع المر!

---

(١) «**تعلم وافعل، كيف تضع معرفتك في موضوع التنفيذ**»، كين بالنشارد وبول ميير وديك رو في، خلاصات كتب التربية والتعليم، (العدد ٤٨)، الشركة العربية للإعلام العلمي (شعاع)، (ص/٤، ٥) بتصرف.

(٣)

*** قتل الفضول:**

كثير جدًا اً من الأبحاث تخبرنا أنَّ الطفل هو الكائن الأكثر اكتشافًا في هذا الكون الفسيح، فميول الطفل نحو الاستكشاف تبدأ معه منذ الولادة، ويزداد الأمر اتساعًا وقوة عندما يمتلك طفلنا ملكة اللغة التي تمنحه القدرة علىٰ السؤال، فهنا يُفتح الباب علىٰ مصرعيه، فيرهقك الطفل من كثرة الأسئلة وقد يصل عدد الأسئلة التي يسألها الطفل في اليوم الواحد إلىٰ مئة سؤال، وكالعادة نشرع في تصفية هذه الملكة وتكون البداية مع البيت؛ إذ ندخل طفلنا ضمن نطاق العيب والقمع، فعلىٰ الطفل أن يكون تماما كما يريده الآخرون، هم يريدونه ذاك الطفل الصامت الذي لا يعكر مزاج الجلسة، ذاك الطفل الذي لا تسمع له همسًا ولا ركزًا، ونشرع في مجموعة الممنوعات:

لا توسخ، لا تكسر، لا تخرب، لا تلعب، لا تبتعد . . .، وكلها يمكن أن نصنفها تحت بند لا تستكشف.

ثم تأتي الوسيلة الأهم لقتل شغف الطفل وسجنه وهي المدرسة، وكل ما يرتقي الطفل في سلم المدرسة يتم تصفية مفهوم

السؤال عند الطفل ويصبح متلقيًا وبهذا نكون قد أجهزنا علىٰ أداته العقلية تمامًا.

وبهذا تخبرنا جين كروس وسوزي بوص «إنَّه من الملاحظ أنه بمجرد وصول الطلاب إلىٰ المرحلة الوسطىٰ في سنوات الدراسة ينخفض لديهم معدل الفضول حول موضوعات المدرسة، وعندما يصلون إلىٰ المرحلة الثانوية يكون السؤال الشائع بينهم هو: هل سيتضمن الاختبار هذا الموضوع؟ = من العدل أن يطرح الطالب هذا السؤال إن كان قد اعتاد أسلوب التلقين واكتساب المعرفة للإجابة فقط عن أسئلة الاختبار، لكن هذا السؤال يعتبر علامة تحذيرية علىٰ أن المدرسة تقيد فضول الطلاب عن طريق الأساليب المتبعة في الفصول الدراسية والتي تدعو إلىٰ السلبية في التعليم فيصبح الطالب متلقيًا فقط وغير مسؤول عما تعلمه»[1].

ويمكن إجمال الأسباب التي تقتل الفضول عند الطفل في عدة أسباب:

أسباب مترسخة في أصل النظام نفسه، حيث إنَّ أصل نظام المدرسة في حد ذاته قائم علىٰ قتل هذه الروح إذ كيف ستصنع من الطفل كائنا طائعا ضمن دولتك إن لم يكن التعليم هو سبيلك «ومن

(١) «**أشركني كي أتعلم، استخدام المشروعات العلمية في التحصيل الدراسي**»، جين ركوس وسوزي بوص، خلاصات التربية والتعليم، (العدد ٥٢)، الشركة العربية للإعلام العلمي (شعاع)، (ص/٢).

٢٠٠ سنة تقريبًا وتحديدًا في ١٨٠٩ مع بدء التعليم الإجباري في بروسيا كان هدف التعليم البروسي -كما رأينا في المقدمة التاريخية- هندسة الطلاب كأشياء لا كبشر، ومن بين يد الكنيسة والجيش الشركات، المدارس كانت تستخدم لصناعة طاهرين وجنود ومواطنين وعمال، ومع كل تشكيل جديد هناك دوما أجندة تعمل، دائمًا هناك هدف أو دافع، لا يهم ما هي المؤسسة التي تستخدم هذا الهدف هل هي طرف ثالث، جماعات خاصة، الفكرة محك النظر = ترسيخ ما نحتاج ثم نجعل المدرسة تصنع النتائج، والفكرة تركز علىٰ ماذا يجب علىٰ الطلاب أن يفعلوه، وبماذا سيفيدون مجتمعهم وينظر لهم كرأس مال بشري لا كبشر من الأساس»[١].

إذا كان الفضول والاستكشاف مزعجًا لأصحاب القرار فما علينا إلا وأده في مهده ويتم ذلك من خلال المدارس الإجبارية، فنعلم الطالب كيف يجب أن يكون وما هي مهامه الرئيسة في الحياة ونرضعه نموذجنا الأوحد حد نخرجه شبه الآلة.

(٢) قلة خبرة المعلم:

كثير من المعلمين ينظرون إلىٰ عملية التعليم علىٰ أنَّها عملية تلقينية يدخل المعلم غرفة الصف، وكأنَّه راديو، ثم يشغل هذا

(١) The Curiosity of School: Education and the Dark Side of Enlightenmentn,zander Sherman,penguin group , p 344.

الراديو وإن أسعفه الوقت ليسأل سؤالًا لطلابه كان بها وإن لم يسعفه الوقت فلا بأس، ويا للجريمة إن قاطعه طالب من الطلاب أثناء حديثه يريد سؤالًا، فهنا تنهال عليه مجموعة التهم المعلبة من أنه قليل الأدب، ولا يعرف اللباقة ودعك من الإحراج الذي سيأخذه الطالب نتيجة هذا التقريع الظالم.

وإذا أردنا أن نساعد المعلمين في هذا الباب فنستطيع أن نطرح مجموعة من الأدوات التي تساعد المدرس علىٰ إشعال شعلة الفضول التي تحاول المدرسة إطفاءها:

(١) أداة العصف الذهني (Brain storming):

وهي عبارة عن طريقة غير رسمية ومريحة لحل المشكلات البحثية، وتعتمد الطريقة علىٰ طريقة جمع المعلومات من خلال إعطاء الطلاب (٢٠- ٣٠ دقيقة) ليفكروا بأي فكرة تخطر علىٰ بالهم، مهما كانت لحل مشكلة معينة، وبعدها يتم تسجيل الأفكار في ورق ومناقشتها وتوليد أفكارًا أخرىٰ منها، وفي نهاية المطاف يتم اعتماد الأفكار الأكثر قربًا للواقع والتي يتم الإجماع عليها.

*** وتكمن أهم الفوائد في هذه الأداة:**

(أ) أنها تشجع علىٰ اكتشاف الأفكار الجديدة وهذه تصب في صلب الموضوع الذي نتكلم فيه وهو إحياء الفضول.

(ب) استخدام هذه الأداة تزودنا ببيئة حرة ومفتوحة يتشارك فيها الجميع لحل المشاكل، مما يعزز التفاعل الاجتماعي، وكسر

حواجز الصمت عند الطلاب، بالإضافة إلىٰ تعليمهم علىٰ التعلم من خلال المشاركة.

(ج) تعتبر هذه الطريقة طريقة غير تقليدية في التعليم، ممَّا يضفي جوًا من المرح علىٰ العملية التعليمية، والمرح في العملية التعليمية يخفف الضغط عن الطلاب ولا يشعرهم بثقل الوقت الذي يعانونه في جو الدرس التقليدي.

(د) يهتم التعليم الحديث أو المناهج الحديثة في التعليم بإدماج الطالب في عملية التعلم، بل جعله هو الأساس في عملية التعلم، فالمدرس لا يعدو أن يقدم المفهوم ويفك أول غوامضه، ثم يتخذ دور المشرف= وهذه الطريقة مناسبة جدًا لتفعيل هذا الدور للطالب وإدماجه في العملية التعليمية لا علىٰ أنه عنصر سلبي بل كعنصر فعال مشارك.

لنأخذ مثالًا علىٰ ذلك حتىٰ نقرب المفهوم، ولنأخذ مشكلة كيف نعلم أطفالنا خارج المدرسة.

ولنفرض أن هناك عائلتين، عائلة عمار وعائلة خالد.

تعطىٰ كل من العائلتين (٢٠ دقيقة) ليقترح أفرادها كيف يمكن أن يعلموا أطفالهم خارج المدرسة، فتخرج النتائج كالتالي -وهذه تجربة فعلية-:

(١) هناك العديد من المناهج الجاهزة التي يستطيع الأهل أن يتخذوا منها منهجًا للتدريس في البيت ويمكن الدمج بين أكثر من منهج.

(٢) يمكن إنشاء أول جمعية في الأردن تُعنىٰ بالدفع نحو التعليم المنزلي.

(٣) تكوين مجموعة من العائلات التي تتشارك فيما بينها في تعليم أولادها، فالمتميز فيها في الرياضيات يدرس الأولاد الرياضيات، والمتميز في اللغة الإنجليزية يعلمهم اللغة الإنجليزية وهكذا.

(٤) النشاطات الفنية ودورات إعادة التدوير وغيرها من الدورات التي توفرها العائلات للأطفال، وتساعدهم في صقل مهاراتهم الحياتية أو التواصل بين العائلات للاستفادة عبر وسائل التواصل الاجتماعية.

(٥) تفعيل دور الأقارب والأصدقاء بل وحتىٰ الأغراب في جمع روافد للتعليم المنزلي والمشاركة فيه.

(٦) تفعيل دور النشاطات في الحدائق العامة والمتاحف لتفعيل النشاط الاجتماعي للأطفال الذين يهتم بهم منزليا.

(٢) تفعيل مفهوم الخرائط الذهنية:

والخرائط الذهنية عبارة عن تقنية مفيدة تساعد علىٰ التنظيم وتوسع نطاق المعلومات من خلال رسم الدرس أو حل المشكلة علىٰ طريقة الشجرة.

وأهمية هذه التقنية تكمن في الآتي:

(أ) تساعدنا علىٰ معرفة وفهم هيكل الموضوع بشكل سريع.

(ب) تساعدنا علىٰ تتبع كيفية البناء المعرفي وتتبع الطريقة التي تم بها بناء المعلومات وترابطها.

(ج) تساعدنا أيضًا علىٰ معرفة أصول المسائل من خلال جعلها المادة الأساسية ثم التفريع عليها.

(د) تساعد الطلاب والمدرسين علىٰ تذكر المعلومات؛ لأنَّها تفعِّل الجانب البصري بالإضافة إلىٰ الجانب السمعي، ومن المعلوم أن الجانب البصري في عملية التذكر أقوىٰ من العامل السمعي، فنحن نتذكر الصور بطريقة أسهل وأسرع مما نتذكر الأصوات.

(هـ) تساعدنا الخرائط الذهنية أيضا علىٰ تجزئة المشاريع الكبيرة إلىٰ أهداف صغيرة؛ فيسهل تبعًا لذلك الحل والتطبيق، وهذا يذكرنا بالـ (appreciable) في نموذج الهدف الواضح والذي يقسم الهدف الكبير إلىٰ أهداف صغيرة ليسهل تقديرها وتقدير الجهد الذي لا بُدَّ أن نعطيه لتحقيق كل هدف.

لنأخذ مثالًا متمثلًا في إشكالية تنظيم الوقت، هذه الصورة عبارة عن خارطة ذهنية تحاول إجمال أسباب سوء إدارة الوقت:

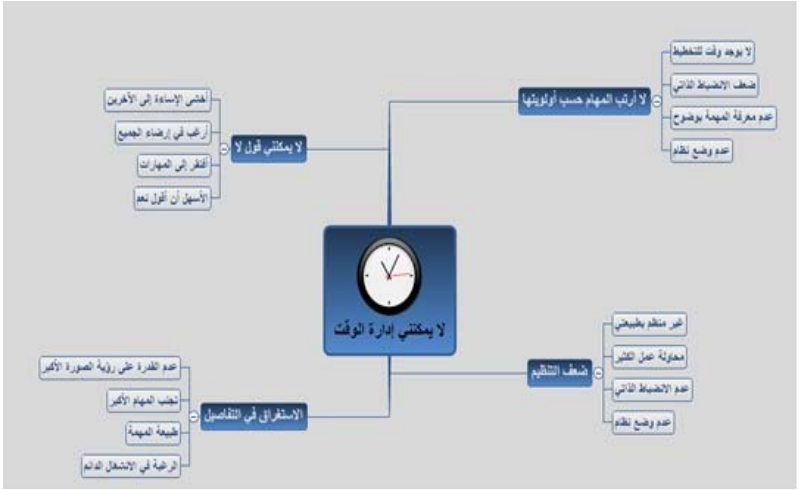

(٣) الدائرة المعرفية:

تقوم هذه الأداة في الأساس علىٰ نسبة الوثوقية من المعلومة ونسبة معرفتك لنقاط مناط البحث من عدمها، فالمفهوم أساس البحث يكون في وسط الدائرة والمفاهيم المجهولة تكون خارج الدائرة في الأساس وأما الأفكار التي تتأرجح بين المفهوم وعدمه فتكون علىٰ الخط، ومثال ذلك لنأخذ مفهوم الإدراك مثلًا، ولنرسم دائرته:

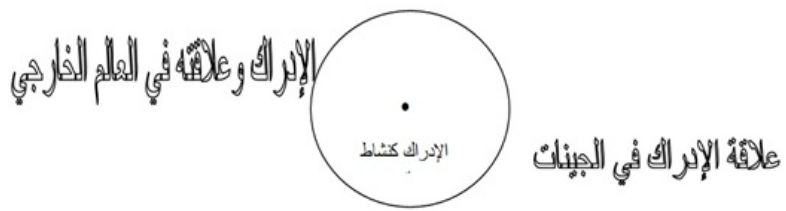

حسب هذه الرسمة مثلًا نعلم أنَّ الإدراك بالنسبة لنا هو أمر نمارسه بشكل يومي، فعندما تقول لشخص ما هل أدركت كذا؟ فتكون إجابته إما بنعم وإما بلا = وهذا يعطي مؤشر واضح علىٰ فهم عام لعملية الإدراك.

وإن أتينا للمفهوم الثاني وهو (علاقة الإدراك في العالم الخارجي)؛ فنجد أنَّه علىٰ خط الدائرة ممَّا يعني أنَّ عندي معرفة بهذا المفهوم لكن هذه المعرفة مشوشة وتحتاج إلىٰ تفسيرها ومعرفة مذاهب الناس فيها.

أما علاقة عملية الإدراك بعلم الجينات فهو لا يلامس الدائرة أصلًا ممَّا يعني أنِّي فاقد المعرفة لهذا المفهوم، ممَّا يتطلب مني البحث عن المصادر في الأول ثم بذل جهد أكبر مما بذلته في ما لو كان المفهوم في وسط الدائرة أو ملامسًا لها.

وتفيد هذه الأداة في البداية في استفزاز المعرفة التراكمية عند الطالب ممَّا يشعل الفضول عنده لمعرفة المزيد عن المفهوم المركزي الذي يعرفه، ثم يفيد هذا النموذج في فهم أهمية العلم ومعرفة مقدار الجهل الذي يحيط بنا وهذا يورث التواضع، ومن الأمثلة الجميلة التي استخدمت لهذا المفهوم ما استخدمه الدكتور عبد الكريم بكار في كتابه «**القراءة المثمرة**»؛ ليبين نسبة المعلوم لنا من المجهول، فقد صور العلم كنقطة في دائرة الكرة الأرضية فأنت عندما تتحرك -مثلًا- من عمان إلىٰ العقبة علىٰ الخريطة ستكتشف

معان والطفيلة؛ لأنَّها قبل العقبة وغيرها، وبمجرد اكتشافك لهذه المنطقة تدخل داخل حيز دائرتك -أي معرفتك-، لكن عند وصولك للعقبة سيفتح أمامك نقاط من الجهل تقبع خارج الدائرة مثل: البحر الأحمر وما الدول التي لها شواطئ حول البحر الأحمر وما عواصم هذه الدول وعدد سكانها وعادتهم، فعلىٰ هذا يتبين لك أن كل معلومة تحصل عليها إن كانت تعطيك مساحة من المعرفة فهي تعطيك مساحات من الجهل.

التعلم من خلال المشاريع وهي مستفادة من جين كروس وشوزي بوص في كتابهما، (أشركني كي أتعلم)، وتتم كالآتي:

(١) تحديد المفاهيم التي يُستحق تناولها في الشروع.

وهنا لا بُدَّ أن نحدد العناصر الرئيسية أساس البحث، فعلىٰ سبيل المثال إن كنا نبحث في التسويق لا بُدَّ أن يعرف الطالب أساس التسويق وهي عناصر المزيج التسويقي الأربعة: المنتج، الترويج، التوزيع ومن ثم التسعير.

(٢) استكشاف أهميتها وارتباطها بحياة الناس.

فعلىٰ سبيل المثال نستطيع أن نسأل سؤالًا عامًا، كيف تحولت بعض المنتجات من سلع كمالية إلىٰ أساسية؟ يمكن أن تكون الإجابة: أنَّه تم ذلك من خلال خلق بيئة استهلاكية تغرق الناس في المنتجات لأجل اكتساب المال من قبل شركات متعددة الجنسيات.

وإن طورنا السؤال وربطناه في حياة الناس أكثر، وقلنا كيف تم لهم ذلك؟

فتكون الإجابة من حملات ترويجية مكثفة تعتمد علىٰ التكرر ونقل مفهوم الرغبة إلىٰ مفهوم الحاجة، فالأمر الذي كان كماليًا فيما سبق وهو عبارة عن رغبة قد ألبيها أو أتركها، بات الآن من خلال التركيز الدعائي والضغط علىٰ المجتمع الناتج من هذا التكرار عبارة عن حاجة ملحة لا تكتمل الحياة بدونها، والأمثلة كثيرة علىٰ ذلك مثل التلفاز حاليًّا قد يكون موجودًا في البيت ولا يستخدم إلَّا أنَّه لا يقبل مجتمعيًّا أن يكون هناك منزل دون تلفاز، (وهنا بيّنا مفهومًا بسيطًا حول الترويج من خلال ربطه بحياة الناس).

ثم نثني بأنَّ هذه المنتجات بعد الضخ الترويجي لها بات لا بُدَّ من توفيرها في أي بقعة جغرافية ممكنة حتىٰ نسهل علىٰ الناس شراءها بعد أن أقنعناهم بأهميّتها، وهنا يأتي دور التوزيع لإغراق الأسواق بهذه السلعة التي قُرر أن تكون حاجة أساسية.

وفي النهاية يتم عرض هذه السلعة -مثلًا- علىٰ أنَّها بسعر (١٩٩,٩ دينارًا أردنيًّا)، وهذا السعر يسمىٰ تسويقيا (odd price) وهو حيلة نفسية استخدمها أرباب التسويق حتىٰ يخففوا الحمل النفسي الثقيل لرقم (٢٠٠ دينار أردني).

وبهذا الكلام نكون قد ربطنا المفاهيم الأربعة الأساسية بحياة الناس مما يسهل التعلم علىٰ الطالب؛ لأنَّه يقرب المعلومة من

واقعه ولا يعطيه إياها مجردة عن سياقها المجتمعي.

(٣) ربط هذه المفاهيم بمفاهيم أخرىٰ (integrated process) كما سميناها سابقًا، وليكتمل تطبيقنا علىٰ المثال كان عنوان أحد مقالاتي (التسويق بين إرباك الوجود الإنساني ومخلب الليفاثان)[١]، وكان هدف المقال الربط بين مفهوم التسويق وكيف تستخدمه الدولة الحديثة لإبعاد مواطنيها عن الأسئلة الجوهرية، فالليفاثان هو رمز للتنين الأسطوري أشار له الفيلسوف هوبز في فلسفته، وهو كناية عن توغل الدولة في حياة الأفراد وإحكام سيطرتها وكأنها ذاك التنين الجارح المبتلع لمن تحته، وأناقش فيها دور التسويق في مساعدة هذا التنين في إحكام سيطرته علىٰ المواطنين من خلال إغراقهم بالسلع والخدمات مما يبعدهم عن أي تفكير في نظام الدولة أو إشكالاتها أو حتىٰ غاية حياتهم وأهدافهم.

(٤) تفعيل التفكير النقدي:

ويتم التفكير النقدي حسب جين وسوزي في عدة أشكال منها:

(أ) تحديد أوجه الشبه والاختلاف بين عناصر الموضوع، فمثلا حسب المثال الذي في الأعلىٰ يمكن أن أسأل الطلاب بعد أن أنهي الشرح بطريقته الواقعية ما الفرق بين النشر والإعلان؟

---

(١) هنا رابط المقال لمن أراد الاطلاع عليه:

http://nama-center.com/ActivitieDatials.aspx?Id=30606

أو ما الشبه بين رجل البيع والترويج؟ وحتىٰ يفهم القارئ عما أتحدث فالفرق بين النشر والإعلان أن كلاهما يتم بث مادته علىٰ التلفاز أو ما شابه، لكن الإعلان يكون مدفوعًا أما النشر فلا يكون مدفوعا، ولهذا يكون أكثر ثقة عند المستهلك فننصح كمسوقين أن نحاول الاقتراب من النشر منه للإعلان، ومثال النشر أن تقوم القناة الرسمية للدولة بعمل برنامج عن مصنع ألبان مثلًا.

(ب) تحديد ارتباط الجزء بالكل، فماذا يمثل عنصر التوزيع من ثقل في المفهوم التسويقي وبهذا نحدد أوزان العلاقات الأساسية التي تشكل المفهوم.

(ج) دراسة وجهات النظر البديلة، ففي المثال السابق -مثلًا- قلنا: إنَّ عناصر التسويق أربعة، لكن عراب التسويق فيلب كولتر يرىٰ أنَّها أكثر من ذلك، ويدخل عنصر (people)، أي الناس وغيرهم في المزيج، فهنا نسأل هل فعلا مفهوم كوتلر = مفهوم صحيح، أم يمكننا رد مفهوم (people) لأحد العناصر الأربعة، وإن لم يمكننا ذلك فعلينا أن نعدل المزيج من أربعة عناصر إلىٰ خمسة.

(د) يمكننا في النهاية أن نكتب مسودة عن المشروع بكتابة كل ما قلناه سابقًا علىٰ ورقة، ثم التطبيق مع الطلاب.

وهذا الجدول يُرصد أهمية التعليم من خلال المشروعات بالإضافة لأهم النتائج المترتبة عليه من خلال تعريف التعليم من خلال المشاريع وهو: التعليم القائم علىٰ المشروعات الذي يكسب الطلاب معارف ومهارات وسمات مهمة؛ لأنهم يبحثون عن

إجابات لأسئلة مفتوحة فيقدمون بها إسهاماتهم إلىٰ العلم بطريقة هادفة.

تشريح معنىٰ التعليم من خلال المشاريع	أهمية ذلك	النتيجة
هو التعليم القائم علىٰ المشروعات.	فيكون التركيز علىٰ خبرة الطالب وتفاعله.	يتراجع دور المعلم كملقن، ويعمل علىٰ تصميم المشروعات وتحضيرها وإدارتها، ويتعلم جنبًا إلىٰ جنب مع الطلاب.
الذي يكسب الطلاب معارف ومهارات وسمات مهمة.	فلا تكون المشروعات عبارة عن تدريس تلقيني للمنهج الدراسي، بل تدخل في تعليم الطلاب مهارات وقدرات تهمهم في واقع الحياة.	يصمم المعلم المشروعات آخذًا في عين الاعتبار التطورات المستقبلية ليكسب الطلاب المعارف والمهارات اللازمة المناسبة للمستقبل.

تشريح معنىٰ التعليم من خلال المشاريع	أهمية ذلك	النتيجة
لأنَّهم يبحثون عن إجابات لأسئلة مفتوحة.	فتثير هذه الأسئلة فضول الطلاب، وتدفعهم إلىٰ التساؤل.	عندما يطرح المعلم السؤال الصحيح في بداية المشروع سيقود هذا الطلاب إلىٰ أسئلة أكثر.
فيقدمون بها إسهاماتهم إلىٰ العلم.	فيصبح العلم تجربة مهمة وفريدة من نوعها بالنسبة للطالب، ويضيف قيمة إليهم وإلىٰ الآخرين.	تنشّط المشروعات في العادة مهارات التفكير العليا: التنظير والتحقيق والتحليل والتوصل إلىٰ استنتاجات مبتكرة.
بطريقة هادفة.	فيتناسب شكل المشروع مع الوظيفة المفترض أن يؤدوها (الترفيه أو التحفيز أو تطوير مهارة الاختراع).	يسمح المشروع ذو التصميم المرن بالتعبير الحر الخلاق، كما أن تبادل المعرفة بين المشاركين في المشروع يرسخ المعلومات.

[تم نقل الجدول بتصرف من خلاصات التربية والتعليم، (العدد ٥٢)، كتاب «**أشركني كي أتعلم**»، (استخدام المشروعات العلمية في التحصيل المدرسي، الشركة العربية للإعلام العلمي شعاع)، (ص/ ٣)].

(٤)

في إشكاليّةِ القدوةِ

لا يوجد مثل القدوة جذوة تشعل نار التغير في حياة الطفل والبالغ، وبحكم قرب المعلم من هذه الفئات العمرية فقد يكون أقرب الناس إلىٰ تشكيل قدوة سليمة للطلاب تشعل رغبتهم في العلم وتجعلهم من أهل الهمة والنجاح، وطبعًا هناك خلل مباشر في نظرنا لمفهوم المعلم كقدوة فالعرف السائد أنَّ المعلم قدوة من خلال سرده لمجموعة من القواعد والأنظمة والإجراءات التي تنظم حياة الطفل وتجعل سير حياته سليمًا، أو تضعه علىٰ سلم النجاح وهذا المفهوم عبارة عن مفهوم سلبي لا يصنع الإبداع والتميز عند الطلاب بقدر ما يصنع الطالب العبد، وأجمل هنا مجموعة من الفروق مع الأمثلة بين المعلم القدوة الصريح الذي يربي طلابه من خلال التعليمات، والمعلم الضمني الذي يؤمن أن القدوة بدايةً هي العمل وإرسال الرسائل المرمّزة ليسير الطالب علىٰ خطىٰ النجاح دون توجيه مباشر بالإلقاء.

(١) القدوة الإدراكية بأن تحاول صنع منهج التفكير بدل أن تضع للطلاب إطارا للتفكير:

من خلال التميز الإدراكي عند المعلم يستطيع أن يعلم

الطلاب الاكتشاف بدل أن يلقنهم النظرية، ففي الفلم الوثائقي الذي بعنوان الظاهرة الفنلندية يشير إلىٰ أن طريق معلم الرياضيات ليس وضع المعادلات وحلها، بل السير في منهجية يستطيع الطالب من خلالها اكتشاف النظرية بدلًا من بصمها.

ويشير روان ريتشارت إلىٰ القدوة من خلال التميز في القوة الإدراكية أي: «الارتقاء في مستوىٰ التدريب والتدريس إلىٰ مستوىٰ جديد كليًا يتجاوز فكرة اكتساب الخبرة فقط من خلال إتقان مهارة ما، وإنما من خلال استيعاب آلية تفكير الخبراء بشكل عام: كيف يتجاوزون المواقف العصيبة؟ وكيف يقيمون جودة الأشياء؟ وكيف يكتشفون المشكلات = قطعًا ليس من السهل استنباط هذه الأشياء كما هو الحال في السلوكيات المباشرة التي تستند إلىٰ أنظمة التدريب والتدريس التقليدية»[1]، وفي المثال السابق يتضح الفرق جليًا بين الأسلوب التقليدي المتمثل في حل المعادلات والأسلوب المعتمد علىٰ تنشيط القوة الإدراكية من خلال وضع الطلاب علىٰ منهجية تمكنهم من اكتشاف النظرية.

(٢) القدوة التفاعلية:

والمقصود بالقدوة التفاعلية هي التي تعلم الطلاب من خلال الأمثلة والممارسة، فعلىٰ سبيل المثال هناك إرباك واضح عند

---

(١) «**ثقافة التفكير ... سلاح التغير، ثماني قوىٰ تقلب موازين التعليم**»، روان ريتشاردت، خلاصات كتب التربية والتعليم، العربية للإعلام العلمي (شعاع)، (ص/٢).

الطلاب بين مفهوم رجل المبيعات كبائع ورجل المبيعات كأداة ترويجية تستخدمها الشركات، فكنت أضرب للطالب مثالًا علىٰ ذلك بالآتي:

إنَّ البائع الذي يقف أمام سيارة روز رايز يحدد لباسه بمعايير دقيقة جدًا، فالساعة لا بُدَّ من أن تكون لعلامة تجاريّة باهظة الثمن، وكذلك البدلة التي يلبسها بالإضافة إلىٰ الحذاء، كل ذلك يتم اختياره بناء علىٰ أعلىٰ الأسعار؛ وسبب ذلك أن البائع لا بُدَّ أن يُشعر العميل أنه يدخل علىٰ فئة اجتماعية معينة بشرائه، بل بمجرد تعامله معنا والجلوس علىٰ طاولة المفاوضة للشراء، فتنقلب وظيفة البائع هنا إلىٰ شقين شق للبيع المعروف وشق آخر إلىٰ أداة إعلانية يتم الترويج من خلال جسده لفئة اجتماعية معينة، وبعد فترة فحصت المفهوم عند الطلاب وإذ به عالق في أذهانهم كأني قلته للتو، وبهذا تعرف ما للأمثلة والسرد من أهمية في حياة الناس ويقول في أهمية ذلك الدكتور الطيب بوعزة:

فضلًا عن اللذة عند سماع السرد أو قراءته؛ فإنَّ من مميزات السرد أنَّه قادر علىٰ مقاومة النسيان؛ لذا اتخذ تقنية لحمل الماضي إلىٰ الحاضر وحفظه، فلولا السرد لضاعت الخبرة الإنسانية واندثرت، ولما أمكن تناقلها من جيل إلىٰ جيل، بل بمراجعة أنظمة الخطاب البشري يصح القول إنَّ الحامل الأول للمعرفة كان هو السرد[1].

---

(١) «**ما هي الرواية**»، الطيب بوعزة، عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ (٢٠١٦م)، (ص/٣٩).

فإذا كان السرد الحكائي له هذه الأهمية في حقل التاريخ البشري المعرفي؛ فهل نهمله، أم نفعل أدواته من خلال تقريب المعلومات علىٰ شكل الأمثلة والشكل القصصي، ممَّا يرسخ المفاهيم في عقل الطالب بطريقة أقوىٰ مما لو ألقي الكلام بطريقة رتيبة من خلال التلقي السلبي للمعلومة دون وضعها في إطار سردي أو قصصي أو طرحه علىٰ شكل أمثلة.

ولتكتمل الفاعلية علىٰ المعلم أن يشرك الطالب في السرد فبعد أن يضرب المثال يغيب قليلًا ثم يخرج مجموعة من الطلاب ليمثلوا القصة التي قالها المعلم أو ليعيدوا السرد بطريقتهم فهنا نثبت المعلومة بشكل ممتاز وتفاعلي ولا أفضل من تثبيت المعلومة من أن يدرس الطالب ما تعلمه من معلمه أو يمثله.

(٣) إظهار نعمة الله علىٰ عبده:

هناك فهم مغلوط لقضية إخفاء الرياء والتواضع، فتجد الشخص يُخفي ما تفضل الله به عليه خوفًا من الرياء أو السمعة، وإن كان هذا من جانب صحيح؛ إلَّا أنَّه إن فعل الكل هذا فلم ننسب فضلًا لأهله؛ لأنَّ أهل الفضل أخفوا فضل الله عليهم، وفي هذا استدل بقول رسولنا ﷺ:

إنَّ الله يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده . رواه الترمذي وحسنه.

وفي شرح الحديث: «**إنَّ الله يحب أن يرىٰ**» بصيغة المجهول

أي يبصر ويظهر (أثر نعمته)، أي إحسانه وكرمه تعالىٰ، فمن شكرها إظهارها ومن كفرانها كتمانها، قال المظهر: يعني إذا أتىٰ الله عبدًا من عباده نعمة من نعم الدنيا؛ فليظهرها من نفسه بأن يلبس لباسًا يليق بحاله لإظهار نعمة الله عليه وليقصده المحتاجون لطلب الزكاة والصدقات وكذلك العلماء يظهروا علمهم ليستفيد الناس منهم[1].

وما يهمني هنا إظهار العلماء لعلمهم ليستفيد من الناس، وليس هذا فقط بل ليتعلم الطلاب قيمة العلم ورفعته، وليميزوا من هم أهل القدوة فيقتدوا بهم، إذ إنَّ القدوة عبارة عن أنموذج لا بُدَّ له من إظهار؛ فإن لم يظهر المعلمون علمهم وتميزهم فلن يحدثوا فرقًا في نفوس طلابهم، وإن لم يظهروا هم فمن؟!

(١) «**تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**»، محمد عبد الرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية (٨/٨٨).

(٥)

قطعُ حبلِ السريّةِ

ذكر الدكتور عبد الرحمن ذاكر الهاشمي في مقطع له علىٰ اليوتيوب بعنوان (الطفل والطفولة): أن التربية هي قطع الحبل السري بالتدريج، فما المقصود من ذلك؟

مقصود الدكتور هنا هو الحبل السري الشعوري لا اللحمي، فالمهمة إذن: أن نحاول أن نقطع تعلق الطفل بنا تدريجيًّا؛ حتىٰ يستطيع أن يستقل بنفسه ويعتمد عليها، وحتىٰ يخفف عن كاهلنا بعض حمله، وحتىٰ نجهزه للتكليف المنوط به في عمارة الأرض برضا ربه والسير لإتمام مسيرة دينه.

وفي نفس المقطع يشير الدكتور إلىٰ مفهوم قاتل يقبع تحت مثل مشهور يقال في البيئة الأردنية وهو: «من إيد لأيد يكبر ويزيد»، أي كلما استُلم الطفل من يد ويد رعاية وتجهيزًا وتحضيرًا يزيد نموه علىٰ المستوىٰ الجسدي والشعوري والنفسي ولكن هذا الأمر ليس صحيحًا، بل قد يصل عمره العشرين وهو لا زالت تتلقفه الأيدي وتسلبه حس المسؤولية فتظهر عندنا مجموعة من الأمراض من مثل:

(١) عدم الثقة في النفس.

(٢) التعلق المرضي.

(٣) اللامبالاة.

(٤) ضعف الشخصية.

(٥) الاعتمادية.

ويمكن أن تتفرع هذه الأمراض إلىٰ أنواع أشد علىٰ المستوىٰ النفسي من قبيل الاكتئاب والوساوس، إذًا يكمن الحل في أن نخلق مساحات تخصنا وتخص الطفل فنكون له نعم الراعي ونعم المعين، ثم مساحات للطفل نفسه ليمارس فضوله ويطور اعتماده علىٰ نفسه حتىٰ ينهض بنفسه ومستقبلا يساعد غيره علىٰ النهوض.

كيف يمكن أن نثور هذا المفهوم في مبحثنا عن المدرسة؟

لنقسم الحل إلىٰ قسمين:

الأول: نحاول تطبيقه في المدارس النظامية والثاني نطبقه في المدارس المنزلية (Homeschooling).

(١) المدارس النظامية:

علىٰ جميع الانتقادات للمدرسة النظامية؛ إلَّا أنَّنا مضطرون أن نحاول إصلاح ما يمكن إصلاحه -كما قلنا- فعلىٰ سبيل المثال لا بُدَّ من توجيه مجموعة من الرسائل المركزة التي تستهدف ثلاث شرائح رئيسية هم المعلم والطلاب والأهل وتكون فحوىٰ الرسالة قائمة علىٰ أن الطفل لا بُدَّ أن يكون أحد العناصر الفعالة في عملية التعلم.

ولتقريب المفهوم أذكر طريقة خطتها المؤلفة نانسي فري في كتابها (دليل المعلم الفعل، ٥٠ طريقة لدمج الطلاب وتنمية التعليم الفعال):

في هذا المثال أو الاستراتيجية تضع نانسي خمس خطوات لرفع دمج الطلاب وتفاعلهم ثم إعطائهم المسؤولية كاملة:

- علىٰ المدرس أن ينظم توصياته للدمج وللتفعيل من خلال التدرج في إعطاء المسؤولية وتتكون هذه الخطوة من أربع خطوات:

(١) أنا أفعلها: ويعتمد المدرس هنا علىٰ توضيح الهدف من الدرس وتبيان الأفكار الأساسية ثم الشرح السريع.

(٢) في المرحلة الثانية يقوم المدرس في مقابلة نخبة من الطلاب ليفك لهم مجموعة من المشكلات التي واجهتهم في فهم أو حل المهمة.

(٣) في المرحلة الثالثة يوجه المدرس الطلاب ليتعلموا من بعضهم البعض (Peer working).

(٤) في هذه المرحلة النهائية يوجه المدرس كل طالب علىٰ حدا ليحل مهمته المنوطة به[١].

ولقد طبقت هذه الاستراتيجية علىٰ مادة الإحصاء في الدرس

---

(١) The Effective Teacher's Guide, Second Edition: 50 Ways to Engage Students and Promote Interactive Learning (Teaching Practices That Work) 2nd Edition, p4-6

المتعلق بترتيب البيانات في جداول ولاحظت كم الفرق بين ما لو أنّي شرحت حسب النظام التقليدي بحيث أضع الشرح علىٰ لوح الصف، ثم ينقل الطلاب المعلومات آليًا وبين هذا النظام الفعال الذي نقل أغلب الطلاب من الوضع الساكن المتلقي إلىٰ الوضع الفعال.

ويتضح لك من خلال هذه الاستراتيجية كيف تم تدريج المسؤولية أو ترحيلها من المعلم إلىٰ الطالب بسلاسة وهذا هو عين ما سماه الدكتور عبد الرحمن ذاكر بقطع أوشاج الحبل السري؛ إلَّا أنَّنا طبقناه علىٰ النظام التعليمي المدرسي.

كمثال ثانٍ علىٰ تفعيل هذا المفهوم في الفصل يمكن انتخاب مجموعة من الطلاب الذين يمتازون بنشاطات محددة (كشفية، سباحة، نشاطات لا منهجية)، ثم تصديرهم كقادة مجموعات تعلم من يرغب التعلم في هذا المجال، وهنا المعلم يكسب مجموعة كبيرة جدًا من الفوائد:

(١) التعلم الاجتماعي:

الانتقال من المفهوم الساكن في التعليم المتمثل في غرفة الصف إلىٰ التعليم الرحب الذي تحويه الأنشطة اللامنهجية خاصة من استغلال هذه المساحات للتوجيه لا للتشويه، فالرحلة أو النشاط ليس عبارة عن مجموعة من الأطعمة وقليل من ماء البحر ثم انتهينا، بل المفروض أن تكون مجموعة قيم وأدوات

ومهارات متشابكة يخرج بها الطالب بعد أن ينهي الرحلة أو النشاط، فهناك هدف عضلي في تقوية الجسم، وهناك هدف اجتماعي في تفعيل قابلية الدمج بين المجموعات وإعطاء المجموعة الحرية في صناعة القرار وتحمل نتائجه، وهناك الجانب النفسي وتفعيل دور الصبر والتجلد للصعاب.

(٢) صنع مجموعة من القادة الذين يعتمد عليهم، فيوجهون معه ويساعدونه، ويصنع منهم قصصًا ناجحة في المستقبل، فليس مثل أن تشعر الطالب انه صاحب مسؤولية من شعور بالرجولة والنضج، فهنا يساعد المعلم نفسه ويعلم طالبه في لفتة واحدة.

(٣) صناعة نوع من المنافسة بين الطلاب، فمن خلال إبراز مجموعة من الطلاب تدب منافسة محمودة بين الطلاب لو فقهنا إدارتها، فلا نحلوها لصراع بل نحولها لمعاني العطف من المتميز علىٰ من تحته وندفعه ليشجعهم لا ليكون خصمهم وفي هذا نكسب الحرارة التي هي النار المشتعلة من المنافسة، ونوجهها نحو القيم العليا.

أما فيما يخص التعليم المنزلي فالأمر لا بُدَّ أن يكون آكد لأن اعتماد الطالب علىٰ أهله في العملية التعليمية قد يمنحه مساحة واسعة من الأمان، مما يؤجل حس المسؤولية عنده، وأضع هنا بعض الاقتراحات التي تساعد من يتخذ التعليم المنزلي أساسًا له:

(١) خلق بيئة اجتماعية للتعليم المنزلي يتم من خلالها إعطاء الطفل أعمالًا يفعلها لوحده مع زملائه ممن يتعلمون في المنزل.

(٢) تكليفه بأن ينهي أموره بنفسه، من تجهيز وجبته، وترتيب مكان نومه، وترتيب ملابسه = كل هذه توقظ حس المسؤولية عند الطفل.

(٣) تكليفه بأنشطة فردية كالذهاب للمكتبة العامة لوحده وتصميم بحث عن موضوع ما، أو الذهاب ومساعدة بعد الأطفال الأصغر منه= هذا يعزز عنده حس المسؤولية ويقويها.

الحلُّ الثالثُ والأخيـرُ
الضغطُ على النظامِ (قصصٌ ملهمةٌ)

لا أجد ضغطًا علىٰ نظام فاشل أفضل من أن تجد نموذجًا ناجحًا يحجم تضخمه ويريه كم هو فاشل أمام نفسه، وهذا ما أخطه في هذا الفصل؛ فإنَّ أمريكا -مثلًا- تفجرت فيها الأبحاث عند التجربة الفنلندية بعد أن كان ترتيب فنلندا الأول وأمريكا ٢٨ علىٰ الترتيب العالمي، هذا الاستفزاز هو ما أقصده من هذه القصص التي تلهم من يروم التغير والإنجاز من معلم، أو صاحب قرار أو حتىٰ أب أو أم وأن مثل هذه القصص تستحق أن نكررها في سياقنا العربي والإسلامي.

مدرسةُ العالمِ الواحدِ (سلمان خان)

ندر في هذا الزمان الذي انتشرت فيه الأفلام الهندية أن لا يُعرف النجم البولودي سلمان خان، لقد سطع نجمه حتىٰ اكتسح الأثير كله، لكن لو سألنا ما هي القيمة التي تركها سلمان خان الممثل في نفس مشاهديه أو ما الأثر الذي تركه ليفيد به من بعده من أهل الأرض؟

ربما يجيبنا البعض أنه نشر بعض القيم الأخلاقية في أفلامه، كالشجاعة المتهورة -مثلًا-، وقيم مساعدة الآخرين لا إشكال في هذا؛ لأنَّ من يناقش سلبيات أفلامه سيجد فيها أكثر من ذلك بكثير، ويكفيك منها ضياع الوقت دون فوائد عظيمة تذكر في حياة الناس.

المفارقة الغريبة أن هناك نفس الاسم بحروفه ولكنه ليس بشهرة الأول، سلمان خان الأمريكي من أصول هندية الحاصل علىٰ العديد من الشهادات العالمية في الرياضيات والهندسة، سلمان خان الذي ترك راتبًا قيمته (٤٠٠ ألف دولار) ليتفرغ لأكاديميته أو حلمه حول التعليم، بدأت قصة سلمان خان من طفلة صغيرة جميلة متفوقة اسمها (نادية وهي ابنة عمه)، نادية المتفوقة

التي تشع ذكاءً «تعرضت لأول عثرة دراسية في حياتها، حيث أخفقت في اختبار الرياضيات النهائي للصف السادس، وكان ذلك غريبًا علىٰ كل من عرف نادية وحماسها وحبها للتعليم والتي كانت تعبر عن نفسها أنَّها مستعدة لأي اختبار! وهنا جاء دور بطل هذه القصة القصيرة حيث علم سلمان خان أنَّها مكتئبة وسارع بتقديم عرض للمدرسة بأن يسمحوا لها بدخول الامتحان مرة أخرىٰ، علىٰ أن يتولىٰ هو تدريسها عن بعد عندما تعود إلىٰ نيو أورليانز.

وقبل تدريس نادية حاول خان التوفيق بين طريقة في التدريس تؤتي ثمارها مع ما يحمله من مثالية حول كيف يجب أن نتعلم، وخرج بمبدأين لحل هذا الأمر:

(١) أنه يجب تقديم الدروس بالسرعة التي تناسب الاحتياجات الفردية لكل طالب.

(٢) أن علىٰ الطالب أن يستوعب المفاهيم الأساسية لكي يستطيع استيعاب المفاهيم الأكثر تعقيدًا.

عادت صديقتنا المتفوقة نادية إلىٰ المدرسة في مدينة نيو أرليانز واستكمل بطلنا عمله في بوسطن وشرعا في العمل معًا من خلال لوح الكتروني يستطيع كل منهما رؤية الآخر وهو يكتب مباشرة علىٰ جهازه الكمبيوتر عن طريق برنامج (yahoo doodle)، وتم تحديد وقت محدد عبر الهاتف ليتناول كل من سلمان ونادية المشاكل والعقبات التي تتعرض لها نادية أثناء سير التعلم مع سلمان.

لم يشك سلمان في تفوق وقدرات نادية الاستثنائية في التعلم لكن كان الأمر غريبًا عندما يتعلق بمسائل تحويل الوحدات وهنا يبدو كأن عقلها توقف وعقارب الزمن لم تعد تسير معها بالشكل الصحيح، ويقول سلمان خان هنا:

إنَّ نادية -وكغيرها من الناس- عندما تقابل صعوبة في فهم شيء ما، تبرمج نفسها علىٰ أنها لن تستطيع أن تفهمه أبدًا، ويتبع قائلًا: عندما بدأت العمل أنا ونادية علىٰ حل مسائل الرياضيات، كنت أسألها فتصمت، ثم تجيبني في تردد وإذا سألتها سؤالًا آخر متعلق بنفس الموضوع كانت تغير إجابتها، فهنا خالجني الشعور بالقلق في أنني أسير بالاتجاه الخاطئ، وأنني أضرها أكثر مما أنفعها، وجعلني هذا أفكر وأتجه بتفكيري إلىٰ أن وجود المعلم في بعض الأحيان قد يكون سببًا في إعاقة تفكير الطالب، صحيح أن ما يحدث هو من وجهة نظر المعلم أنَّه يساعد الطالب؛ إلَّا أنَّ من وجهة نظر الطالب الأمر عبارة عن مواجهة صعبة الاحتمال بين المعلم والطالب؛ فالمعلم يسأل وعلىٰ الطالب أن يجيب علىٰ الفور ممَّا يشكل ضغطًا نفسيًّا كبيرًا علىٰ الطالب.

وبناء علىٰ هذا التحليل والملاحظة في عمله مع نادية غيّر سلمان طريقته واستراتيجيته في التعليم، حيث وضع قاعدة واحدة أساسية تتمثل في أنه «ممنوع التخمين» إمَّا أن تعطي نادية إجابة محددة أو أن تطلب مزيدًا من الشرح وهنا يحدثنا سلمان: سرعان ما بدأت الأمور تتحسن وأجادت نادية تحويل الوحدات وأصبحت

جلسات الشرح ممتعة، ومع ازدياد ارتياحها في التعامل مع المادة، بدأت حالة الاستنفار التي كانت تشعر بها تتراجع، والأهم أن ثقتها بذاتها زادت بشكل ملحوظ ولم تعد تشعر بالحرج أو الخزي عندما تحتاج أن أشرح شيئًا مرة أخرىٰ.

وهنا لا بُدَّ لي أن أخرج عن القصة قليلًا لأعلق علىٰ هذه القطعة الفنية النفسية التي تعلمنا أمرًا مهما حول التعامل مع التلاميذ والطلاب، وهو كيف نعلم الطالب التعامل مع الفشل أو كيف لنا أن نفهمه فقه الفشل ولتكن البداية مع قصة كما أفضل أن تكون البدايات:

في (سنة ١٩٧٥م) وُضعت جائزة اسمها (Golden Fleece) لمراقبة كل المشاريع التي يهدر فيها المال بشكل سافر، وكانت النتيجة أن لا أحد رغب في الجائزة أصلا، لماذا؟

يجيب صاحب كتاب (Creativity, inc)؛ لأنَّ منظميها تحت ستار إهدار المال قاموا دون قصد بوضع ثمن غالٍ ومحرج لكل من تسول له نفسه أن يرتكب خطأً.

ولأنَّ هذه الجائزة اعتبرت الفشل سلاحًا مدمرًا، بدلًا من أن تنظر إليه باعتباره وسيلة للتعلم.

ويفسر صاحب الكتاب بأن سبب احتلال مؤسسة (بيكسار)مكانة خاصة = هو اعتراف موظفيها بوجود المشاكل وحتمية حدوثها.

بالمختصر:

الفشل إنساني وإنساني جدًّا ولا يوجد أحد يستطيع تنحيته من حياته فلا ننظر له علىٰ أنه الرعب المنتظر.

الفشل هو بوابة التعليم الأكبر.

ولنشرع هنا في سؤال أساسي كيف تتعامل المدرسة مع الفشل؟

في المدرسة المظلمة أنت أمام عدة طرق إذا فشلت، فالطريق الأول تلك العصا التي يرفعها الأستاذ متلذذا حين يسقطها علىٰ بدنك، فتكره تبعًا لذلك فشلك وتكره مدرستك وتكره البيئة هذه، وإن كان المعلم أكثر إجرامًا؛ فإنَّه يمارس عليك سياط الألم النفسي فيحجمك أمام طلابه وينعتك بالفاشل الذي لن يكون له فائدة في الحياة، وأنت في هذه المعضلة النفسية أمام حلين لا ثالث لهما إما أن تخضع لهجوم المعلم النفسي عليك فتصبح مثل كارلينيا، لكن من هو كارلينيا وكالعادة سأخبرك القصة يا صديقي القارئ:

في الوقت الذي اهتزت فيه نابولي من الضحك لعروض الممثل الكوميدي كارلينيا جاء رجل إلىٰ طبيب نفسي مشهور في تلك المدينة للسؤال عن السوداوية المفرطة والتي أساءت إلىٰ صحته؛ فنصحه الطبيب بالبحث عن التسلية والذهاب إلىٰ عروض كارلينيا، فأجابه المريض: أنا كارلينيا! [ذكر هذه القصة علي عزت بيجوفتش في كتابه «هروبي إلىٰ الحرية»].

إذًا قد تمارس كطالب دور كارلينيا وتصبح مهرج الصف الذي يضحك عليه المعلم والطالب وتمارس هذا الدور بكل نجاح، لكن خلف الأستار سيبقىٰ ذاك الطفل المعذب الذي تم تحطيم نفسيته فقط؛ لأنَّه مارس حقه في الفشل.

الخيار الثاني الذي أمامك أن تتمرد بأن تحاول أن تثبت قدرتك، وهذا علىٰ تكلفته الكبيرة في حق الطفولة، أو حتىٰ مرحلة الشباب؛ لأنَّه يستنزف الطاقة إلَّا أنِّي أنصح به كل الأهالي حتىٰ لا يخسروا أولادهم ويثبتوا للمدرس أنَّه لم يكن مخطئًا فقط، بل أنَّه كان مجرمًا في هذه الممارسة القاتلة تحت تبرير أنَّ الطفل فشل، لقد أكرم الإسلام الطفولة بعشر سنوات من حرية الخطأ ودليل ذلك ضرب الطفل علىٰ الصلاة في سن العاشرة، وقد تعجب بوبر من هذه القدرة الجبارة عند الطفل علىٰ تعلم اللغة، والإنسان يعيش أطول مرحلة طفولة بين الكائنات، وهذا ما جعل العلماء يقولون: أنه كلما زادت الطفولة زاد الذكاء؛ إذًا لنمنح أطفالنا مساحة أكبر من عبقرية طفولتهم ونقول: كن طفلًا وافشل كما تريد لكن تعلم.

وفي نهاية قصة الفشل حتىٰ نعود لسلمان خان فليست المدرسة التي تورث مع مفهوم الفشل مجموعة من الأمراض النفسية والاجتماعية= هي الحل الصحيح الذي لا بُدَّ أن يسلم الأهل والمعلم به، بل لا بُدَّ أن نجتهد في الحفاظ علىٰ ذلك الزجاج النقي الذي يتمثل بنفسية الطفل فلا نخدشه بمثاليتنا نحن الكبر ولا نكسره

لمجرد أننا نريد أن نثبت وصايتنا وقدرتنا علىٰ ضبط إيقاع حياته، وجزء كبير من التميز هو الاعتراف بحتمية حدوث المشاكل وتعويد النفس التعامل علىٰ هذا الأساس قوة في تحمل الصعاب مع تحمل للمسؤولية عن حب واختيار لا عن عنف وإجبار.

نعود لصديقتنا نادية، حيث إنَّه من مظاهر التغير التي قالها سلمان خان ولاحظها علىٰ نادية أنه بمجرد معرفتها كيفية تحويل الوحدات، بدأت تشعر بالحنق علىٰ نفسها؛ لأنَّها استسلمت للإحباط في وقت ما، أما الآن قد تمكنت من مادة عصية علىٰ الفهم فلن تسمح لنفسها بالإحباط مجددًا، وأورثها هذا فهمًا جديدًا للحياة، بل تعاملًا أفضل مع المشكلات وطريقة حلها، مما سينعكس علىٰ نفسية نادية في المستقبل القريب والبعيد قطعًا.

وهنا نهاية قصة نادية وليست نهاية قصة سلمان، حيث دخلت نادية الاختبار مجددًا، واجتازته بنجاح، كان سلمان يدرس أخويها أرمان وعلي، وذاع الأمر بين أفراد العائلة، فأصبح عند سلمان عشر طلاب، ومن ذلك الوقت بدأت أكاديمية سلمان خان تتأسس دون شعور سلمان بذلك، وهي الآن موجودة علىٰ أرض الواقع.

لا نريد التوقف عند القصة فقط، بل نريد أن نرىٰ منهجية سلمان خان عارضين لها ومنتقدين لبعض جوانبها حتىٰ نساهم في الحلول، ولا نصبح عبارة عن أجهزة ناقلة بدل أن نكون عناصر فاعلة.

(١) الإتقان:

إنَّ العنصر الأول من عناصر طريقة سلمان خان في التدريس هو البحث عن الإتقان ومقصود خان عن الإتقان أن علىٰ الطالب أن يتدرج في الاستيعاب من المفاهيم البسيطة إلىٰ المفاهيم المعقدة.

ونقدنا لهذه الطريقة نابع من إنكارنا عنصر البسيط في اللغة وهذا رأي فتجنشتاين في الأساس فالبسط هو أمر نسبي يختلف من شخص لآخر حسب السياقات المجتمعية والتعليمية التي يعيشها الطفل، وقد تنبه سلمان لهذا الإشكال أن طريقة الاستيعاب تختلف من طفل لآخر إلّا أنه ركز علىٰ مفهوم البسيط متدرجًا إلىٰ الأكثر عمقًا، ودليلًا علىٰ ذلك طريقة تعلم الطفل للأشياء وبناء اللغة معها، فالطفل لا يتعلم معنىٰ السرير علىٰ أنَّه خشب أو حديد في المقام الأول، ثم بعد ذلك طريقة تركيب هذه المواد الخام، ثم فرشة النوم، وما يدثر به جسده، هذه الطريقة ليست هي الطريقة التي يتعلم بها الطفل، وإنَّما يتعلم الطفل من خلال سياق حياتي فالسرير هو منطقة الراحة، وهو منطقة اللعب، وهو الذي يعني النوم وهو الخشب الذي سقطت منه، وهكذا يتعلم الطفل اللغة في الأساس من خلال المشاركة.

وعليه فعلينا أن نشرك الطفل في عملية حياتية حول المفاهيم تحليلية كانت أو تجريبية حتىٰ يكتسب المفهوم في أكثر أبعاده الممكنة.

كيف يُفعل سلمان خان عنصر الإتقان؟ يجيب خان من خلال التكنولوجيا حيث سمحت الأجهزة الحديثة بتقليل تكلفة التعليم وربط المدرسين مع الطلاب بطريقة تفاعلية وهذا ما فعله مع نادية وقد آتت ثمارها هذه الطريقة.

وهناك جانب إيجابي آخر من جوانب الأنظمة التعليمية القائمة علىٰ الإتقان وهي تقوية العلاقة بين الإتقان والمسؤولية الشخصية، فتحمل مسؤولية التعليم هو بحد ذاته تعليم.

(٢) الاهتمام بالطريقة التي تحدث بها عملية التعليم:

للأسف كثير من الأبحاث التي تتناول المادية تتناولها في جوانبها السلبية -كما فصلنا سابقًا- وقد نعتبر هذا الأثر من الآثار السلبية التي رسخها العلامة المسيري في جدليته التي خطها في كتاب الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، حيث نظر أنَّ هناك فصلًا تمًا بين المادية وبين خصائص الإنسان العالية من أخلاق ونظم تفكير وعقل، ولا نريد التفصيل في هذا لأنَّه سيدخلنا في إشكالية فلسفية كبيرة ليس هنا مكان بحثها.

ويمكننا أن نلخص وجهة نظر خان في أنَّنا يجب أن نستفيد من العلوم العصبية الجديدة التي أثبتت أن عملية التعلم تحدث تغيرات في المخ، فيتم تصنيع البروتينات وتزداد الروابط قوة، وكلما عززنا هذه التفاعلات بين الخلايا العصبية كلما أصبحت عملية التعليم أقوىٰ فهي جدلية بين أن التعليم يقوي الروابط العصبية

في المخ، وأن هذه الروابط العصبية كلما تحسنت زادت قدرتنا علىٰ التعليم.

ويحاجج سلمان بأن التعليم النظامي لا يهتم بهذه الطريقة الفعالة للتعليم، والتي تتم بربط المفاهيم القديمة مع الجديدة، فبمجرد أن تنتقل لصف جديد فكأنك أزالته من ذاكرتك ومجرد أن ما تنهي الثانوية العامة وكأنها مرحلة قد طواها تاريخ الذاكرة، مع أن الأبحاث أثبتت أن ربط المعلومات القديمة بالمعلومات الحديثة هي الطريقة الأمثل للتعلم؛ حيث إنَّها تقوي النواقل العصبية وتزيد إمكانية الفهم والتعلم عند الطالب.

طبعًا هذا الكلام لا يعني السقوط في المادية الساذجة، بل المادية هنا عبارة عن شرط إجرائي لتكملة عملية التعليم لا بُدَّ لها من سياق اجتماعي يتطور المفهوم ويحتضنه من خلال ما أودعه الله من فطرة اجتماعية عند البشر علىٰ التعلم.

(٣) التعليم في المقلوب:

هنا يحدثنا سلمان عن مساعدة غير مباشرة قدمها للمعلمين والطلاب دون أن يشعر، حيث إنَّه كان يرفع المادة علىٰ اليوتيوب فتأتيه مجموعة من التعقيبات والشكر علىٰ هذا الجهد، فكثير من المدرسين أرشدوا الطلاب إلىٰ الاستماع لمحاضرات خان عند العودة للبيت، وأما المعلم الأكثر تميزًا وجه الطلاب منذ البداية إلىٰ سماع المحاضرات والدروس في البيت وتكون الحصة الدراسية

هي حصة تفاعلية لفك الإشكالات والتعلم بين الطلاب، يخبرنا سلمان هنا:

أن النموذج الذي اتبعه المعلمون أي تأدية الواجب المنزلي داخل الصف بينما يشاهدون الشرح والدرس في المنزل يفيد الطلاب بشكل مباشرة، حيث يستفيد الطلاب من وجود زملائهم ومعلميهم معهم أثناء حل التدريبات، وبهذه الطريقة يمكن تصحيح المفاهيم الخاطئة، وتذليل العقبات التي يقابلونها في أثناء الحل، كما أنَّه يعطي المعلم الفرصة كي يعمل مع الطلاب الذين يحتاجون المساعدة بدلًا من أن يشرح لجميع الطلاب بنفس الأسلوب ونفس السرعة، أضف إلىٰ ذلك أن الطلاب الذين يستوعبون بسرعة يساعدون من يتعثر فيستفاد هنا من تعليم الأقران (Peer education)، وفوق كل هذا يحظىٰ المعلم بميزة مهمة وهي أنَّه يتعامل عن قرب مع الطلاب، وتنشأ روابط شخصية بينهما ويحصل إفادة فورية من الطالب عن استيعابه باختصار لقد أدىٰ استخدام التكنولوجيا إلىٰ تحويل الفصل الخامل إلىٰ فصل متفاعل ومتوافق مع طبيعتنا الإنسانية.

وينهي سلمان خان الكلام علىٰ هذه التقنية بأنَّها أثبتت أنَّها أكثر فعالية من التعليم التقليدي، فهي بالإضافة لكل ما سبق تحقق تفاعلًا أكبر من نظام المحاضرة داخل الفصل، وتمنح الطلاب حرية السماع حسب الوقت الذي يرغبون فيه والطريقة التي يرغبون بها، إضافة إلىٰ أنَّه يرفع عنهم الحرج أمام زملائهم، فأي مفهوم لم

يستطيعوا فهمه فيستطيعون إعادة المحاضرة مرات ومرات حتىٰ يفهموه، وفي حال كان الدرس سهلًا بالنسبة له ينتقل إلىٰ الدرس الذي يليه أو يخرج للهو واللعب، ثم في النهاية يمكن أن يشارك الطفل الأبوين في عملية التعلم؛ لأنَّ الدرس مصور فننتقل من تطوير القيم الفردية إلىٰ تطوير القيم العائلية.

(٤) الروح السائدة في مدرسة الفصل الواحد التي يراها خان:

ليس من الطبيعي أن يتعلم الأطفال فقط ممن هم في سنهم العمري فالتقسيمات المدرسية حسب العمر = هي تقسيمات غير طبيعية في الأساس؛ فنحن نرىٰ في الأسرة أن الطفل الأصغر يتعلم من الطفل الأكبر والعكس، ونرىٰ في الحياة الواقعية ذلك ولو أردنا تأصيل هذه المسألة من الناحية الإسلامية فلنذكر هنا حديث سعيد ابن جبير، عن ابن عباس قال: كان عمر بن الخطاب يدني ابن عباس، فقال له عبد الرحمن بن عوف: إن لنا أبناء مثله، فقال: إنَّه من حيث تعلم، فسأل عمرُ ابن عباس عن هذه الآية: إذا جاء نصر الله والفتح. فقال: أجلُ رسول الله أعلمه إياه. قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم[1].

فيستفاد من هذا أن طريقة التعليم القائمة علىٰ العمر ليست بهذه الصحة التي نعتقد، بل يتعلم الصغير من الكبير والعكس وهذا هو النظام الطبيعي لتعلم البشر.

---

(١) «**صحيح الجامع**»، الإمام البخاري، الطبعة السلفية، الجزء الثالث، (ص/١٨١).

ويخبرنا سلمان خان عن إشكالية هذه الطريقة في الفصل فيقول: إنَّ هذه الطريقة تفقد كل من الكبار والصغار شيئًا مميزًا يتمثل بالنسبة للصغار بفقدانهم صورة البطل والقدوة والمرشد في حياتهم التعليمية، وعلىٰ الجانب الآخر يحرم الأطفال الأكبر عمرًا من تدربهم علىٰ القيادة والإفادة؛ وبذلك يظلون صغارا مدللين يعتمدون علىٰ آبائهم في كل شيء.

أما في هذا النموذج الحديث الذي يكون فيه الطلاب المتفوقون حلفاء للمعلم بحيث يدرسون ويرشدون زملاءهم الذين يحتاجون إلىٰ مساعدة، ويستفيد الطلاب الأصغر عمرًا من وجودهم في مجال تتوفر لهم فيه قدوات عديدة ومتنوعة: الأخ الأكبر الأخت الكبرىٰ . . . إلخ، بينما تكمن استفادة الطلاب الأكبر عمرًا في تعميق فهمهم للقواعد عند شرحها للطلاب الأصغر، وهكذا يتم إعداد الطلاب إعدادا أفضل ليكونوا فاعلين وناجحين في هذا العالم.

كيف هو وضع المعلم في هذا النظام الذي يسعىٰ له خان؟ في الصف المدرسي، أو الذي علىٰ نظام المحاضرات يحضر مع الطلاب معلم واحد فقط، ومهما تكن مهارة هذا المعلم فلا شكَّ أنَّ هناك جوانب نقص ستؤثر علىٰ نتاج الصف، ما يقترحه سلمان خان في هذا الباب أن يشترك أكثر من معلم في الصف، فمثلًا لنفترض في مادة الرياضيات هناك من هو متميز في التفاضل والتكامل فيشرح للطلاب هذا الفصل ويمكن لتفعيل التعليم

التفاعلي أن نستدعي مدرس فلسفة متمكن فيشرح لنا الأسس الفلسفية لفكرة التفاضل والتكامل، وما لها من علاقة بفكرة اللاتناهي من فلسفة لبنتز ومن بعده.

وتوثيق الكلام من فم خان نفسه يقول: بما أنَّ التدريس مهنة معقدة ومتعددة الوجوه وبما أنه لا يوجد اثنان من البشر يتمتعان بنفس مواطن القوة ونقاط الضعف؛ فإنَّ وجود عدد من المعلمين يرتبون العمل فيما بينهم، يتيح لكل منهم فرصة لأن يركز علىٰ ما يستطيع أن يؤديه بكفاءة، وبما أنه لا يوجد ما يسمىٰ طريقة واحدة صحيحة لتدريس مادة ما سيتمتع الطلاب بميزة التعامل مع أطياف متعددة من الرؤىٰ، وسيساعدهم هذا بأن يفكروا بطريقة نقدية، وسيعدهم إعدادا جيدًا للتعامل مع عالم مليء بتباين الآراء ووجهات النظر.

ثم إنَّ هذا النظام هو الأقرب للوجدان البشري المبني علىٰ عنصر التفاعل، ويساعد هذا النظام المعلم، من حيث إنَّه يخفف عنه الإرهاق الناتج عن عمل الصف الواحد، ويساعد المعلمين في التعلم من زملائهم الأكثر كفاءة ومهارة في التدريس، وفي النهاية يضفي هذا الصف متعدد المعلمين نوعًا جديدًا من المرح بين الطالب والمعلم فيقرب مفهوم التعليم من الطلاب ويخفف الضغط عن عمل المعلمين[1].

(١) تجدر الإشارة هنا إلىٰ أن خان في وصفه للصف الواحد يتخيل فقط ويسعىٰ للتطبيق، أما الأكاديمية فهي الجانب الإلكتروني من التطبيق.

(٥) العطلة الصيفية:

يقول خان إنَّ أسوأ ما في العطلة الصيفية ليس توقف الأطفال عن التعلم، بل بدء مرحلة من عدم التعلم.

والفرق بين توقف التعلم وعدم التعلم واسع، فالمقصود هنا قطع العلاقة بين الطلاب والتعلم نهائيًّا لا مرحلة توقف لساعات لإعادة النفس.

بل لو فحصنا رمزيات هذه المرحلة لوجدناها تزخر بكم من اللامبالاة والكسل المخيف:

فتجد طفلًا يعبر عن هذه المرحلة بأنها مرحلة النوم، وآخر يختزل كل المرحلة في قطعة البلايستيشن، أما الأهالي فليسوا أحسن حالًا فيهم من يدخل ابنه ناديًا رياضيًّا يذهب الطفل فيه ليتعلم تضيع الوقت، ولا يدخل في برنامج رياضي محكم يخرج به الطالب بنظام حياتي للرياضة لا بإهلاك بدنه دون توجيه.

ومن جانب آخر؛ فإنَّ العطلة الصيفية وسيلة لإضاعة الوقت والمال فالملايين من الأموال تصرف علىٰ البنية التحتية للتعليم من مبان مدرسية ومكتبات وصالة رياضية تكون معطلة كليًّا في وقت العطلة الصيفية.

ومن الإشكالات الفسيولوجية التي تسببها العطلة الصفية ضمور الروابط العصبية في المخ؛ لأنَّه كما قررنا أن انقطاع التعليم يُضعف تفاعل تلك الروابط العصبية فيدمن الطالب تبعًا لذلك

الكسل ويستصعب العودة للعلم.

ولا زلت أذكر ذاك الطفل الذي بوجهه الوجل واقفًا لا يعرف طريقه ولا يهتدي إلىٰ سبيل الرشاد، قد يرتجف أو يترقب في الوجوه من يأتي ويحتوي قلبه المرتجف.

قبل قليل كان في حضن أمه وإذ به فجأة يفقد ذلك كله ويترك وحيدًا، كل سنة يتكرر الخوف حتىٰ بات الخوف يدب في قلب الطفل بمجرد ما اقتربت نهاية العطلة تتغير سماء الطفل من ذاك الأزرق الحي إلىٰ تلك العتمة القاتلة، وإذا أمطرت النفس سوادًا فكيف لك أن تُشرق شمسها، وإن كنت كل ما فطمت الطفل عن الراحة أعدته إليها بكسل تام مع العطلة المدرسية، قلي بربك كيف تستقر نفسه وهو يتقلب في منحرفات نفسية شديدة تشكلها دقة أول جرس في الفصل الدراسي.

(٦) ٩٠%:

وأعود وأتذكر وجهي وأتذكر وجه أمي عندما عدت لها من الجامعة ومعدلي وقتها (٩٥%)، لقد تهللت فرحًا فقد غمرتها بهذا الإنجاز العظيم، لقد شعرت أنَّها أنجزت لا أنا، ولا زلت أذكر نفسي حينها فكأن الدنيا لا تسعني من الفرحة، شعور التميز شعور عظيم حتىٰ إنَّه من عظمه ينسيك أن عندك جانب أو جوانب من القصور.

لم ينظر سلمان خان إلىٰ هذه العلامة علىٰ أنها كل الإنجاز

وكعادة أهل النظر الثاقب فكر سلمان بالشيء الذي لا أحد يفكر فيه ونظر ودقق النظر فوجد أن الذي حصل علىٰ (٩٠٪) هو فعليًّا فقد (١٠٪) من المهارات، وإن نظرنا إلىٰ هذه العشرة بشكل تراكمي قد تصبح بعد خمس سنوات ما يقارب (٣٠٪) أو أكثر، إذًا من يسد هذه الفراغات؟

هنا كانت إجابة سلمان التالية:

غالبًا ما يحصل الطالب علىٰ تقدير ممتاز إذا اجتاز الامتحان بنسبة (٩٥٪)، لكن هذا يعني أنَّه لم يتقن (٥٪) من المفاهيم، وعندما ينتقل إلىٰ المفاهيم الأكثر صعوبة يتم ذلك بنقص في المعرفة يساوي (٥٪)، لنأخذ مثالًا علىٰ ذلك إذا كان أداء الطالب جيدًا في مادة الرياضيات، وثم فجأة أصبح يعاني من فهمها، بغض النظر عن اجتهاده، وتميز معلمه، كيف يمكن أن يحدث هذا؟ لقد كانت تقديراته متميزة وكان متفوقا في صفه، لكنه أخفق، لماذا؟

تكمن الإجابة في أن الطالب كان ضحية تعليم يبدو متينا في ظاهره، ولكنه في الحقيقة هش في باطنه.

لقد خضع هذا الطالب للاختبارات عدة مرات، ولكن الاختبارات كانت تفتقر للدقة، وحتىٰ مواطن الضعف التي رصدتها هذه الاختبارات (٥٪)، و(١٠٪) في الطالب عجزت عن التعامل معها، وحدث عكس ما كان يجب أن يحدث، لقد تمت مكافأة الطالب بإعطائه تقديرًا مرتفعا لحصوله علىٰ نسبة (٩٥٪)، وكان الواجب أن يحصل أيضًا علىٰ ملاحظات تعالج مواطن ضعفه

البالغة (٥٠%)، ثم يعاد اختباره بدقة، فإن جاءت نتيجة الاختبار أقل من (١٠٠%)، لا بُدَّ من تكرار العملية، وبمجرد أن يصل الطالب إلىٰ مستوىٰ محدد من الكفاءة، يجب أن يحاول تدريس المادة لطلاب آخرين، بحيث يعمق فهمه للمادة، وخلال تقدمه في المنهج الدراسي يجب أن يواظب علىٰ مراجعة الأفكار الأساسية باستمرار من خلال خبرات متنوعة وعيون مختلفة، وهكذا يمكن ملء الفجوات في مثل هذا النوع من التعليم.

ومن ثَمَّ نظر سلمان خان إلىٰ نظام الاختبارات فوجد فيه الكثير من الثغرات وأولها أنه يقيس مستوىٰ الطالب الكمي فقط، ولا شك أن المقدار الكمي من التعلم هو معيار مهم لكن هناك المعيار الكيفي وهو الأهم، وهذا يحتاج إلىٰ اختبارات أكثر دقة وأكثر تعبًا من قبل المعلم لكنها قطعا أفضل في قياس مستوىٰ أداء الطالب التعليمي.

ومن جانب آخر لماذا يتم اختبار الطالب فقط من الناحية المعلوماتية، أليس الجانب الأخلاقي والسلوكي يجب أن يؤخذ في عين الاعتبار، كثير من المواد يعطىٰ الجانب السلوكي فقط (١٠%) من قيمة التقديرات، لكن لو أردنا الأفضل قطعًا سيعطىٰ هذا الجانب كمًا أكثر من الكم المعلوماتي لعدة أسباب:

(١) أنَّ الجانب السلوكي هو الانعكاس المباشر للجانب المعلوماتي، وفقر هذا الجانب يجعلنا نشك من حيث الأساس أن الطالب تعلم ما يفيده في حياته العملية.

(٢) أن هذا الجانب يطلعنا علىٰ الجانب المخفي من حياة الطالب وجهده ومثابرته، فيذكر خان قصة طفل كان منعزلًا بين الأطفال، ويبدو أنه تعرض لتجربة ممتازة مع معلم من معلمي الأحياء فتميز الطفل في هذه المادة وأبدع.

(٣) إن قياس الجانب الكلي للطفل يطلعنا ليس علىٰ علاقة الطالب مع التقديرات فقط، بل يطلعنا علىٰ كيفية إدارة الطالب للمعلومة، فهل سيوظفها في حياته، وإن وظفها هل سيوظفها في أقل جهد ممكن وكلها علامات سلوكية مهمة في القياس.

(٤) إنَّ المقياس السلوكي يتيح لنا فحص قيمة جوهرية من القيم الإنسانية وقيم العلم وهي قيمة التفاعل، فالطالب الذي يشرح للطلاب والذي يتفاعل مع المدرس ويشعر القاعة كلها بالنشاط لا بُدَّ من العناية به وتطوير مهاراته القيادية والاجتماعية وهذا لا نستطيع تبينه من خلال التقديرات الكمية.

في نهاية هذه القصة، لقد أشعل شمعة هذه القصة حب كبير لصغيرة اسمها نادية، لقد أشفق خان علىٰ تلك الزهرة الفواحة التي أغرقت الدنيا عطرا بتفوقها الدراسي، فقرر أن يقتطع من وقته الذي كان يعود عليه بما يقارب النصف مليون دولار شهريًا ليقدمه إلىٰ هذه الطفلة بالمجان.

لم يتوقف سلمان ويقدم المنن علىٰ هذه الطفلة، بل فحص نفسه، وفحص قدراتها في أثناء عملية التعليم، فعدل من منهجه وعدل من طريقة تفكيرها فعادت تلك الزهرة بعد أن أذابها

الإحباط، عادت سليمة العود مستعدة لمواجهة رياح المصاعب وعواصف التغير، عادت حاملة حنقًا واحدًا فقط يتمثل في كيف سلمت نفسي لهذا الإحباط.

أمَّا سلمان؛ فاستمر الماء الذي يروي بذور العائلة فدرس أخويها، ثم انتقل إلىٰ الأقرب فالأقرب وبعد مدة سالت جداوله علىٰ كثير من صفوف المعلمين فسقوا طلابهم من ينابيع خان المتجددة فانتعش الطلاب، وانقلب صفهم من حديقة مهجورة الروح إلىٰ روضة غناء يغرد فيها الرقم وتتزين الكلمة لقاطفيها، وتتسارع الجمل متشابكة إلىٰ عقول الطلاب لتنقل الروض من عالم الأشياء إلىٰ عالم الأفكار فينقلب المزاج من السواد إلىٰ السداد.

وآخر هذه الجداول التي ضخها سلمان هي تلك الأكاديمية التي بثت علىٰ الشبكة العنكبوتية وأفادت الكثير الكثير من الطلاب ويخبرنا سلمان عن أن مدرسته علىٰ أرض الواقع لم تتجسد بعد، لكن الأساس الذي تقوم عليه من الأفكار قد تم اختباره من خلال ملايين الطلاب علىٰ شبكة الإنترنت، وعشرات الآلاف منهم في فصول فعلية وكانت النتائج مرضية، سواء تم جمعها من خلال بيانات إحصائية أو من خلال قصص وتجارب الطلاب والمعلمين[1].

(١) استفدت من هذا الفصل بشكل مباشر من ملخصات التربية والتعليم التي تصدرها الشركة العربية للأعلام العلمي (شعاع) في (عددها السابع والأربعين)، والذي كان تحت عنوان: «**مدرسة العالم الواحد العالم الواحد، عندما ينقلب التعليم رأسًا علىٰ عقب**»، مع إضافات كثيرة وواسعة.

التجربةُ الفنلنديّةُ

تقول جانا بايولرفي (Jaana Palojrvi)، وزيرة التعليم والثقافة الفنلندية سابقًا: إنَّ المدارس لا تعلم الطلاب فقط، بل ترفعهم.

لا يوجد شخص مهتم بقضايا التعليم وإشكالاته ومشاكله إلَّا وتعرض للتجربة الفنلندية من قريب أو بعيد، ونستطيع القول بكل شجاعة أن التجربة الفنلندية هي أعظم تجربة تعليمية في القرن الحديث، هي الطائر الذي يغرد خارج السرب، لكنَّه يلفت انتباه السرب كله، فصوته ليس بالنشاز، بل هو عبارة عن تاريخ مشبع بالألم وعن أنغام رسمت سيمفونيتها الصعاب، ومع هذا الاهتمام فقليل من الأبحاث التي وجدتها تبحث أصول هذا التميز والإبداع، والكتابات العربية تقريبا جافة في هذا الباب إلا النزر اليسير، الكتابات الأجنبية كثيرة لكن القليل من يدرس هذه التجربة في كل أبعادها، وماذا نقصد بهذه الأبعاد؟

المقصود بهذه الأبعاد كما يخبرنا مؤرخ المدارس والناقد زاندير شيرمان، أنَّنا لن نستطيع فهم التجربة الفنلندية إلَّا إن فهمنا الشق التاريخي لهذه الدولة والشق الحديث.

أما الشق التاريخي:

بداية لم تعرف فنلندا كدولة لأصحابها حق التصرف فيها إلَّا في (سنة ١٩١٧م) قبل ذلك كانت تسمىٰ (Grand Duchy)، وكانت منطقة تابعة لروسيا في الأساس، وقبل ذلك كانت فنلندا تحت الاحتلال السويدي، لم يكن احتلال فنلندا طبيعيًّا كباقي الدول، بل إنَّ الاحتلال السويدي لها يقرب إلىٰ الألف عام، ولم يكن واضحًا دور فنلندا في الحروب الصليبية، وسجل لنا التاريخ لتلك المنطقة أنه في (سنة ١٦٠٠) حصل هناك مجاعة ذهبت بثلث الشعب ومع (سنة ١٧٢١) بقي ما يقارب (٢٥٠٠٠٠) نسمة فقط، ولا يُنسىٰ في هذه الفترة أنَّ الجيش السويدي كان يتخذ الطعام الفنلندي مزودًا رئيسًا له.

في (سنة ١٨٠٨) تحركت القوات الروسية نحو الغرب لاحتلال فنلندا، وكان هدفها في الأساس احتلال السويد، وكانت فنلندا دومًا هي الرحىٰ الذي يطحن بين أي مشاكل بين روسيا وسويد، بعد سنة كاملة من الحرب أصبحت فنلندا كليًّا تحت الاحتلال الروسي، وهنا دخلت الشخصية الفنلندية تحت منظومة جديدة من الاستبداد، في عصر إسكندر روسيا سقطت فنلندا في مائة عام من الاستبداد، اختفت خلالها الشخصية، واللغة والثقافة الفنلندية، حتىٰ إنَّ أحد شهداء ذاك العصر قال: «هو تدمير كلي لوجود الأمة الفنلندية»، كان هدف روسيا واضحًا في القضاء علىٰ أي نفس من الحرية يتحرك في قلوب الفنلنديين، استمرت روسيا في إنهاك فنلندا، حتىٰ إنَّها حملت البنك الفنلندي أضعاف أضعاف

ما يحتمل، وفي (سنة ١٩١٧م)، وبطريقة عجيبة دوليًّا حصلت فنلندا علىٰ استقلالها والأعجب من ذلك أنَّها لم تحمل أي ضغينة ضد هذه الدول التي أنهكتها، ربما للوعي الداخليّ أنَّ الإصلاح لا بُدَّ أن يكون من داخل الجسد لا من خارجه.

لم تنتهِ قصة الجروح بعد ففي (سنة ١٩١٨م) دخلت فنلندا في حرب أهلية نتج عنها النظام الجمهوري، وكان وراء هذه الحرب (٣٠٠ ألف) قتيل في (١٠٨ يوم فقط)، ثم أتت الحرب العالمية الثانية لتكمل مسيرتها علىٰ ذلك الجسد المنهك وتجلب لفنلندا أكثر من (١٥٠٠٠٠ قتيل)، وأكثر من (٥٠٠٠٠ طفل مشرد)، وفي نهاية المطاف أجبرت فنلندا علىٰ إعطاء (١٢%) من أرضها للاتحاد السوفيتي كنتيجة للتقسيمات العالمية الجديدة.

الخبر الجيد في كل هذا أن بعد (سنة ١٩٥٦م) مع رحيل آخر رئيس متزمت (Kusti Paasikivi) لم يأتِ لفنلندا رئيس بهذه المواصفات إلىٰ يوم الناس هذا.

ما الفائدة المستخلصة من هذا العرض التاريخي؟

إنَّ الفائدة الأساسية هي أن أي تجربة إنسانية هي عبارة عن تجربة معقدة لا يمكن اختزالها في عامل واحد، ثم نقول إنَّنا حللناها بشكل صحيح، ومن كان يعتقد أن التعليم في فنلندا كان نتيجة أمر سهل، فهو مخطئ في ذلك، بل إنَّ الهوية الفنلندية تعرضت لطمس وطمس ودخلت في حروب شديدة مع غيرها وذاتها حتىٰ يتبين لها الطريق.

من هذا التاريخ المؤلم نرجح أنَّ التوجه نحو التعليم في فنلندا كان محاولة نحو استعادة الهوية التي تم سحقها ومن الدلائل علىٰ هذا الكلام، أن أحد الفنلنديين عندما سؤال عن انطباعه ومستوىٰ فخره بتعليمهم الأول علىٰ مستوىٰ العالم كانت إجابته: «المهم أن نتفوق علىٰ السويد لا أكثر».

هنا الأنا التي كانت تحت سنوات طويلة من الاحتلال تحاول الثأر لنفسها من جديد، وتحاول إثبات أنَّنا أفضل من ذلك الوحش الذي نهش في جسدنا كل هذه السنين.

ومن الدلائل علىٰ أنَّ التعليم الفنلندي أصبح أكثر ما يكون هوية لأصحابه أن أحد باحثي النظام الفنلندي أرجع نجاحه إلىٰ منهج (process throughout life) learning as a continuous أي التعليم المستمر مدىٰ الحياة، وفي تعليق علىٰ هذا المنهج تقول نفس وزيرة التعليم: «أن الحياة دون تعليم ستصبح مستحيلة»، وكأن التعليم يعاد ترتيبه تاريخيًّا في فنلندا للثأر لتلك الروح التي تحررت من سجن الاستعمار.

بعد أن أنهينا البعد التاريخي ندخل إلىٰ الشق الحاضر في التجربة الفنلندية، حيث إنَّه في الأثناء التي كانت كل الدول تختبر وتصنف وتحاسب الأطفال بناءً علىٰ نظام التعليم البروسي، قررت فنلندا أن تجعل كل الأطفال من عمر السابعة إلىٰ عمر السادسة عشر مع بعضهم البعض، دون تقسيمات بناء علىٰ قدراتهم أو ما شابه، بعد سنّ السادسة عشرة يصبح التعليم عمل تطوعي حتىٰ

مدارس الطب والقانون التي تعتبر عماد أي دولة حديثة لهم الخيار في ذلك، في ذلك الوقت الفنلنديون لم يكونوا يهتمون بإنتاج الطبقات الاجتماعية أو بالمهارات المهمة للعمال، كل ما كانوا يهتموا به هو إعطاء أطفالهم تعليمًا مناسبًا.

عندما دخلت فنلندا الاتحاد الأوروبي في (سنة ١٩٥٥م) كان نظامها التعليمي أفضل نظام علىٰ مستوىٰ الكوكب، لكنه لم يكن مشهورًا والأغرب من ذلك أنَّ الفنلنديين أنفسهم لم يكونوا يحبون الحديث عن إنجازاتهم ويتركون العمل هو الذي يتحدث عنهم، وحسب علماء الأنثروبولوجيا؛ فإنَّ المجتمع الفنلندي مجتمع يميل إلىٰ الصمت حتىٰ تقال النكات فيما بينهم لشدة حبهم للصمت، وأما كيف اكتشف النظام الفنلندي علميًّا فمن خلال النظام الدولي لتقييم الطلاب (PISA)، حيث تسيد الطلاب الفنلنديون هذا التقييم في الرياضيات والقراءة وغيرها هنا التفت العالم لهذه التجربة.

ولو أردنا أن نشرع في تحليل دقيق للتجربة الفنلندية؛ فلا بُدَّ أن نعرف أنَّه علىٰ المستوىٰ الاجتماعي والاقتصادي هناك جانب مذهل من حيث التجانس وعلىٰ الجانب السياسي أي حزب صاعد يدعم دولة الرفاه ونظام الضرائب الذي يمهد لهذه الدولة، فالتجانس هنا هو الذي يوحد هدف الجميع نحو الجميع، بل يمكننا القول إنَّ المحن التي تعرضت لها فنلندا عبر تاريخها جعلت سكانها أقرب لبعضهم البعض، فالاحتلال يأتي في الأساس لتفتيت هذه الذرات المتجانسة وبمجرد أن يوجه سلاحه نحوها فيستفزها

أكثر نحو المزيد والمزيد من التجانس.

وفي مقارنة بين أمريكا وفنلندا يحدثنا شيرمان أن في أمريكا الشمالية يكمن المعيار الاجتماعي (class)، والأهم منه هو المعيار الاقتصادي كأهم عنصرين يعرف بهما خصائص النجاح عند الطالب، بغض النظر عن الذهاب إلىٰ المدرسة، أو عن جودة معلميهم أو عن كيفية نجاح الطلاب بشكل جيد في الامتحانات!

لنجمل الآن أهم العناصر التي يراها شيرمان ساعدت علىٰ نهوض النظام الفنلندي بشكل مرتب:

في البحث عن أهم معايير نجاح التجربة الفنلندية وجد بعض الباحثين أنَّ أهم عناصر نجاح التجربة الفنلندية تكمن في:

(١) الجودة التي يتمتع بها المعلمون:

إنَّ أفضل إكرام يراه المعلم الفنلندي هو السعادة التي يحاط بها من كونه مدرسًا، علىٰ العكس ممَّا يحصل في أمريكا الشمالية، حيث في بعض الأحيان المدرس يفر من المدرسة قبل الطالب، وليس الوضع أفضل حالا في كندا حيث تشير المؤشرات الصحية والعقلية أنَّ الوضع في خطر، حيث (٥٠ ساعة) من العمل في الأسبوع، وإدارة خانقة، ومناهج دراسية مقدسة، اختبارات معيارية متكررة تتسبب في الاستنزاف.

في فنلندا المعلم له الحرية أن يضع الاختبار بالطريقة التي يريد وليس من المهم أن يكون حسب معيار الآخر مهما كان هذا الآخر.

في أمريكا أكثر من نصف المدرسين يغادرون عملهم في أول خمس سنوات من حياتهم العملية ممَّا يكلف الحكومة ما يقارب (٧ بليون دولار) تقريبًا.

(٢) المكتبات العامة الجذابة:

لنأخذ -مثلًا- علىٰ ذلك أكبر جامعة في فنلندا، وهي جامعة هلسنكي Helsinki University حيث شيدت مكتبتها في منطقة بشكل فني أقرب ما يكون إلىٰ طبيعة الحي الذي تقام فيه المكتبة، فالمكتبة في شكلها الخارجي تستخدم فيها نفس المواد التي استخدمت في بناء المباني بالإضافة لشكل زجاجي جذاب وهذه شكل الجامعة من الخارج:

أما المكتبة من الداخل؛ فهي مكتبة عصرية كليًّا ذات أشكال لولبية يراعىٰ فيها بعد الراحة أكثر ما يكون، ويستخدم فيها الأجهزة القابلة للنقل، فالكراسي عندما تصمم = تصمم بالطريقة التي تجعل من السهل نقلها وإعادة تصميمها، في داخل المكتبة يحسب حساب الحاجة للكلام، فهناك كراسي مخصصة ومصممة للراحة وتجاذب أطراف الحديث، يوجد أيضًا في المكتبة مطعم لأخذ ساعة راحة حتىٰ إذا أراد شخص أن يقضي يومه بالكامل في المكتبة فيجد مطعما ليسد جوعه.

أما طريقة استعارة الكتب؛ فلا يوجد موظف في الأصل لذلك هي عبارة عن بطاقة تحملها، ثم تمررها علىٰ الآلة وتمرر الكتاب عليها، ثم تأخذ ورقة أشبه ما تكون بالفاتورة تحدد لك الوقت المتاح لك لحين إعادة الكتاب للمكتبة، طريقة الإرجاع تكون عن طريق نافذة صغيرة تضع فيها الكتاب وبطاقتك وتنتهي العملية كليًّا.

(٣) صغر حجم الصف المدرسي:

لو شرعنا في سؤال أساسي هنا وقلنا: هل هناك نظام صفي متشابه تخضع له المدارس في فنلندا؟

حسب اطلاعي علىٰ كثير من الفيديوهات التي تهتم بالتعليم الفنلندي، فلم أجد أن هناك نظامًا معينًا يتحكم في غرفة الصف، بل هي متروكة لإبداع المدرسة والطريقة التي تراها أكثر راحة لطلابها، ولكن الرابط الأساسي بين الصفوف هو صغر حجمها،

فما الفائدة الأساسية من صغر حجم الصفوف؟

إنَّ الفائدة الرئيسة من هذه الخاصية هي تعزيز التفاعل بين الطلاب والمدرس، فكل ما اتسعت الغرفة الصفية كلما تشتت الطالب وقل تفاعله مع زملائه ومع مدرسه، بل لا عجب أن تدخل في بعض المحاضرات وتخرج وأنت لا تعرف من في قاعة الدرس أصلا في أنظمة الدول الأخرىٰ، أما في فنلندا؛ فإنَّ الصف الدراسي صف اجتماعي في الأساس، وهذا الصف مزود بأدراج قابلة للحركة وليست ثابتةً بحيث يعاد تصميم الصف كل حين، ونفس الدرج يمكن أن يقلب إلىٰ طاولة لعب يتشارك الطلاب في ما بينهم في اللعب عليها، فالغرفة الصفية في فنلندا هي فعليًّا أقرب لحياة الطالب الفعلية من باقي الصفوف المعتمة التي علىٰ مستوىٰ العالم.

يضاف إلىٰ ذلك أنَّ الصف الدراسي الصغير يصب في مصلحة المعلم مباشرة فيخفف عنه العبء التدريسي، ويساعده علىٰ الاعتناء بالطلاب بصورة أفضل ممَّا لو كان الصف مشبعًا بالطلاب، وهنا نرىٰ طريقتين إبداعيتين في الخروج من سلبية الصف المدرسي، الأولىٰ مع حل سلمان خان التي يقرر فيها زيادة عدد المعلمين لتخفيف الحمل عن المدرس والتشارك في الإبداع والثانية طريقة الصف المدرسي الفنلندي.

(٤) مصادر مميزة للصف الدراسي:

يبدو أنَّ فنلندا مصممة أن تفاجئنا في كل شيء، عند ذكر

المصادر المميزة للصف المدرسي، فالأغلب سيعتقد أنَّ المصادر هنا تكنولوجية عالية، بالإضافة إلىٰ كل ما هو حديث لكن تخبرنا كيتلين إيما في تقريرها لموقع (POLITICO) «أن المصادر الأساسية للتعلم في فنلندا هي المصادر التقليدية، قلم الرصاص والألوان وكافة الأدوات التقليدية»[1]، وأما الوسائل الحديثة فتجد جهاز العرض (data show) يستخدمها في التدريس فقط.

(٥) بيئة عملية محببة:

إنَّ الركيزة الأساسية التي تعتمد عليها البيئة التعليمية الفنلندية ليست التنافس، بل التعليم، وكما مر معنا أن من أهم ما يميز التعليم الفنلندي أنَّه تعليم مدىٰ الحياة، أضف لذلك أن الشعب الفنلندي نظرته للرفاه نظرة مختلفة عن النظرة الأمريكية؛ فهو لا ينزع للثراء ليحول العملية التعليمية إلىٰ حلبة صراع تنافسية، بل إن مفهوم التعليم في فنلندا هو مفهوم حياة ومتعة.

(٦) انتباه شديد للتعليم الأكاديمي:

مع كل هذه القيم العلية والتعليم مدىٰ الحياة؛ إلَّا أنَّ الفنلنديين عندهم حرص شديد علىٰ التعليم الأكاديمي، فعلىٰ سبيل المثال إن كان هناك مدرس جديد، يعين له موجه يتناقش هو وإياه

(١) Finland's low-tech take on education, By CAITLIN EMMA

http://www.politico.com/story/2014/05/finland-school-system-107137

لأيام خطة المدرس الجديد لحصة واحدة، ويدخل هذا الموجه الذي هو معلم قديم مع المدرس الجديد الدرس، ويراقب العملية بدقة ثم يتناقش معها مع هذا المدرس بعد الدرس ليرفعوا الأداء، أضف لذلك الدورات التدريبية التي علىٰ مستوىٰ العام التي يحصل عليها المعلمون واليومية منها كما ذكرنا سابقًا.

(٧) دعم المؤسسة التعليمية من خلال الأحزاب السياسية:

أين كان توجه الحزبي السياسي الذي يملك زمام الحكم في فنلندا فأول ما يؤكد عليه دعمه للعملية التعليمية، بل نستطيع القول إن الحزب لن يحصل دعما أمام يملك خطة محكمة حول التعليم، فالنظام الاجتماعي الصارم الذي يحكم فنلندا يضمن لها فرض توجهاتها علىٰ الجانب السياسي؛ وإلَّا رفض هذا الحزب السياسي مجتمعيًا.

(٨) حتىٰ الوجبات الحارة تحسب في نظام التعليم الفنلندي:

في فنلندا يحسب حساب الوجبة أن تصل حارة للطالب، بل إنَّ التعليم الفنلندي يراعي أن يكون أقرب ما يكون للمنزل، فالطلاب يتعلمون الطبخ أيضًا داخل الصف المدرسي، وهذا المثال إنَّ أراد توضيح أمر معين= فهو أنَّهم يهتمون بأدق تفاصيل حياة الطالب.

وفي النهاية كانت الجملة الأكثر إشعاعًا في هذه الأسباب أنَّ المعلم هو سبب التميز في هذه المنظومة.

في الختام اعتبر البعض غير هذه الظروف فهناك من أرجع هذا النموذج الفريد إلىٰ التجانس الذي تمتلكه الدولة الفنلندية، وغيرهم أرجعه إلىٰ تاريخ قديم حيث إنَّه في (عام ١٧٠٠) في فنلندا كان يمنع الرجل والمرأة من الزواج حتىٰ يقرأ كل منهما الإنجيل وغيره أما شيرمان فاختتم مبحثه عن التعليم الفنلندي بالآتي:

بعد كل هذه الآراء ربما السبب البسيط الذي ميز التعليم الفنلندي هو عدم إتباعهم للنظام البروسي في التعليم، بل بادروا تعليمهم من خلال أنفسهم بناء علىٰ تاريخهم الفريد وقيمهم هم ومن نيتهم تعليم أولادهم لا تشكيلهم[١].

*** التناقض:**

حتىٰ نستمتع بالتجربة الفنلندية بشكل أفضل سيكون التناقض مساعدًا أكثر من المنطق العادي في فتح مفاتيح التميز في هذه التجربة، ويبدأ التناقض من قطاع الاتصالات فحتىٰ وقت قريب، بل وإلىٰ الآن تعتبر فنلندا من أكثر دول العالم تطورا في قطاع الاتصالات، والكل تقريبًا يذكر شركة نوكيا عندما سيطرت علىٰ قطاع الهواتف المحمولة في العالم قبل أن تزيحها آبل وسمسونج، الفكرة أنَّ فنلندا مع تطورها الشديد في قطاع الاتصالات إلّا أنَّ الشعب الفنلندي يصنف علىٰ أنَّه من الشعوب الأقل كلامًا

(١) The Curiosity of School: Education and the Dark Side of Enlightenment, by Zander Sherman soft copy, p196-203

أو الشعوب التي تميل إلىٰ الصمت، والشعب هناك يفضل العزلة علىٰ التفاعلات الاجتماعية.

حتىٰ إنَّ من القصص الشعبية التي تحكىٰ هناك أنَّ رجلين التقيا بعد فترة طويلة وهما صديقا الطفولة، فقررا أن يحتفلا بهذه المناسبة وهذه المشاعر الخلابة، فذهبا إلىٰ المطعم وقررا أن يجدا طاولة هادئة، وطلبا أول عصير للجلسة، وساد الصمت، حتىٰ طلبا العصير الثاني، ويبقىٰ الصمت مسيطرًا، والثالث، وعندما أوشك الرابع علىٰ الانتهاء قام أحدهما لقرع الكؤوس ونادىٰ صاحبه، وقال: يا صديقي أتينا إلىٰ هنا للكلام أم لنشرب العصير.

إنَّ العنوان الرئيس للتناقضات التي تحكم العملية التعليمية في فنلندا هو ما أطلق عليه كثير من الباحثين: (Lss is more)، أي الكثير يعني القليل، وفي هذا الفصل سنتحدث عن أرقام وجداول توضح كيف استثمرت فنلندا هذا المفهوم:

(١) عدد ساعات الدراسة الفعلية التي يحصل عليها الطالب فعليا، حيث أشارت منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD) في إحصائية لها لمعدل ساعات الدراسة في كثير من الدول التي تنضوي تحت عضويتها وكانت النتائج حسب الجدول التالي:

Figure 2.9. Total Intended Instruction Hours in Public Institutions for Students Ages 7–14 in 2008 in Selected OECD Countries

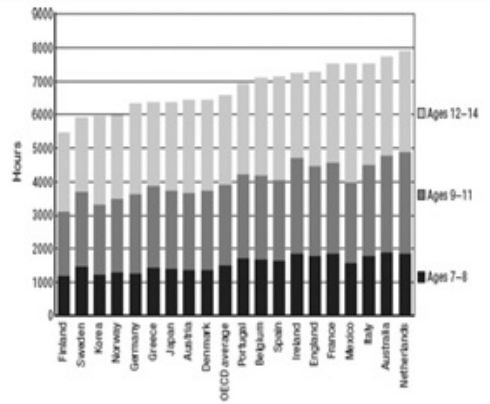

Source: OECD (2010a).

* **بداية يقسم هذا الجدول المراحل العمرية إلىٰ ثلاث مراحل:**

الأولىٰ من (٧ إلىٰ ٨).

الثانية من (٩ إلىٰ ١١).

الثالثة من (١٢ إلىٰ ١٤).

ثم يمثل الخط العامودي المقابل لهذه الفئات ساعات الدوام التدريسية التي يأخذها الطالب، أما المحور الأفقي فهو يمثل مجموعة الدول التي دخلت تحت الدراسة، ونلاحظ في جميع الفئات كانت فنلندا من أقل الدول في عدد الساعات الدراسية التي تعطىٰ للطالب في العام -والدراسة اختصت بسنة ٢٠٠٨- ولو قرنا المسألة حسب السنوات وقارنا بين فنلندا وإيطاليا مثلا، فسنجد أن الطالب الإيطالي في عمر ١٥ سنة سيكون أخذ دروسًا مدرسية أكثر

بسنتين من زميله الفنلندي، ويؤخذ في عين الاعتبار أن الطفل الفنلندي يبدأ دراسته في عمر السابعة بينما الطفل الإيطالي، في عمر الخامسة فيحصل عندنا عند قياس الأربعة عشر عامًا دراسيًا أنَّ الطفل الإيطالي من المفترض أن يكون حصل علىٰ أربع سنوات تعليمية أكثر من زميله الفنلنديّ.

الآن يأتي السؤال المحوري، إن كان الأمر يعتمد علىٰ الكم فقط فمن المفروض أن يتفوق الطفل الإيطالي والأمريكي -حيث المعدل الأمريكي للحضور لا يختلف كثيرًا عن إيطاليا- لا بُدَّ وأن يتفوقوا؟

لنرَ ما قدمته إحصاءات منظمة التعاون الاقتصادي حول نتائج اختبار البرنامج الدولي لتقييم الطلاب (Pisa) لقياس الأداء العلمي لدىٰ الطلاب من خلال ثلاثة استبيانات تمت من (سنة ٢٠٠٠ إلىٰ ٢٠٠٦):

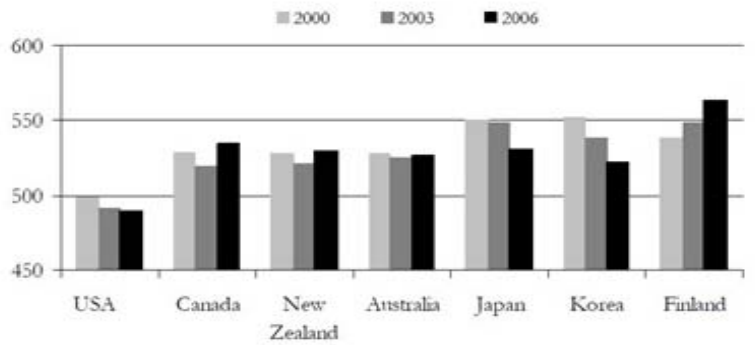

Figure 5. Finnish 15-year old students' performance in science in three OECD PISA surveys between 2000 and 2006 in selected OECD countries

وكانت النتائج أنَّ فنلندا هي الأولىٰ في (٢٠٠٦م) بعد أن اختطفت الصدارة من كوريا واليابان أمَّا إيطاليا، فلا ذكر لها في الخمسة الأوائل وأمريكا فتقبع في المركز الخامس في هذا الاختبار، وهذا ما يشير إلىٰ أنَّ التقليل من عدد ساعات الدراسة شارك من ضمن مجموعة من العوامل في تحسين أداء الطلاب في فنلندا.

بما أنَّ اليوم الدراسي في فنلندا أقصر مقارنة بالدول الأخرىٰ، فما الذي يفعله الطلاب حين ينتهي يومهم الدراسي؟

هنا الطلاب لديهم الحرية في اختيار العودة إلىٰ المنزل في وقت الظهيرة ما لم يطلب منهم تأدية نشاط آخر في المدرسة، لكن المدارس الابتدائية تحث علىٰ فعل الكثير من الأنشطة بعد وقت الدوام للطلاب صغار السن، أما فيما يخص الطلاب الكبار فيخيرون بين النشاطات التعليمية والنشاطات الترفيهية، الجمعيات الشبابية والرياضية تلعب دورًا رئيسًا في تقديم الفرص لإشراك الشباب في النشاطات المختلفة التي تعزز من نموهم الجسدي وترفع من قيمهم التعليمية، في جل مدارس العالم ينظر الطلاب إلىٰ الترفيه والفسحة علىٰ أنَّها وقت الهروب من التعليم، أو هي المتنفس من وجه الأستاذ الكئيب، أمَّا الترفيه في فنلندا فلا ينظر إليه علىٰ أنَّه مرحلة الخروج من التعليم، بل هو في حد ذاته مرحلة مهمة من مراحل التعليم.

أثر سياسة القليل يعني الأكثر علىٰ المعلمين الفنلنديين:

لننظر إلىٰ هذا الجدول حتىٰ نتبيَّن الفرق ونشرحه:

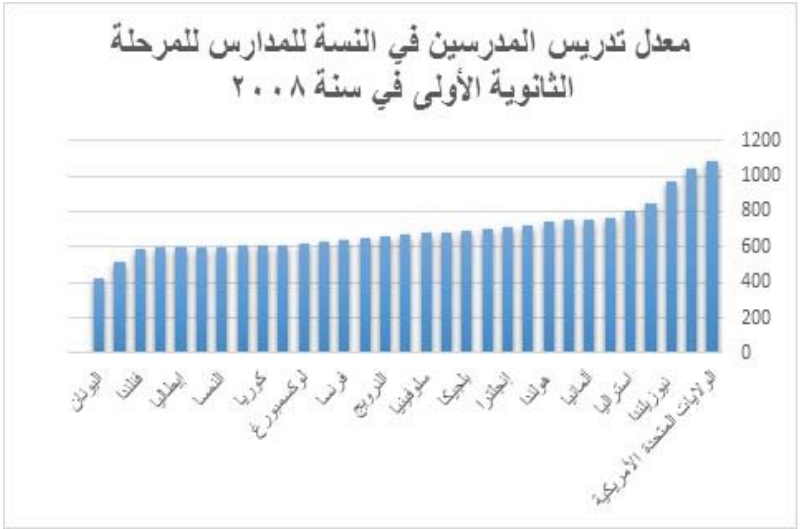

طبعًا حسب هذا الجدول الذي أصدرته منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية يعطي المدرس الفنلندي ما يقارب (٦٠٠ ساعة) سنويًا، أي: لو وزعناها علىٰ مستوىٰ اليوم سيكون للمدرس أربع حصص تعليمية كل حصة (٤٥ دقيقة) كتدريس، وربع الساعة المتبقية من الممكن أن تكون دردشة أو ما شابه، إذن محصلة المعلم في فنلندا في اليوم (٤ ساعات)، وأما الساعتان المتبقيتان؛ فإنَّه يتجه للتدريب الاحترافي، وتكون هذه الساعات التدريبية مدفوعة الأجر.

التناقض الثاني في نظام القليل يعني الكثير هو (اختبارات أقل وتعليم أكثر).

لا يخضع الطلاب الفنلنديون لاختبارات إلزامية كما لدىٰ زملائهم من بقية دول العالم، وهذا يكون لعدة أسباب من ضمنها أنَّ نظام الاختبارات بهذا الشكل يشكل ضغطًا كبيرًا علىٰ الطالب والمعلم، مثل هذا يجعل هدف التدريس هو للاختبار وليس للتعليم، أضف إلىٰ ذلك التكاليف الكبيرة من طباعة الورق وما شابه.

إذن هل يخلو النظام الفنلندي من عملية تقييمية؟ طبعًا لا لكن يمكن تقسيم الاختبارات أو الواجبات في الصف الفنلندي إلىٰ ثلاثة أقسام:

(١) الواجبات الصفية وهي عبارة عن مشاركة بين الطالب والمدرس، وتشمل ثلاث خطوات أيضًا تبدأ بتحليل المشكلة أو الموضوع الذي سندرسه، ثم إعادة تركيبه وربطه ثم في النهاية كتابة ملخص من كل طالب لنضمن أن المفاهيم قد تحصل عليها الطالب، السؤال هل تتوقف الواجبات الدراسية علىٰ ذلك؟ الإجابة لا فلكل مدرسة، بل لكل مدرس أن يضع منهجيته في تقييم الطلاب فصليًّا لكن بشرط أن تثبت هذه المنهجية فعاليتها، وبهذا ندمج الاختبار بالعملية التعليمية ولا يصبح عبارة عن ورقة منفصلة نقدمها في نهاية الفصل أو في وسطه.

(٢) في نهاية كل سنة يحصل الطالب علىٰ تقييم شامل لعمليته التعليمية، ويشتمل هذا التقييم علىٰ تقرير مفصل للأداء الأكاديمي والغير أكاديمي بما في ذلك القيمي والتفاعلي، وكل هذا يحدد عن

طريق المدرسة بالطريقة التي تريدها بشرط أن تكون ملائمة للروح العامة المحددة بشكل عام جدًّا كدليل من وزارة التعليم.

(٣) الاختبار الثالث: الاختبارات علىٰ مستوىٰ الدولة التي تقيس مستوىٰ أداء الطلاب مثلًا في مادة الرياضيات أو القراءة أو ما شابه.

أمَّا التعارض الظاهري الثالث؛ فهو يتمثل في منح حقوق تعليم متساوية لجميع الطلاب، ولكن يُحل هذا التعارض من خلال مساحة التنوع والمرونة التي تُمنح للمدرسة في تحديد المناهج وكيفية تدريسها وتطويرها وتقييمها.

وبهذا ننهي هذه القصة الفخمة من النجاح والتميز.

قصةُ المدام مونتسوري

ولدت ماريا مونتسوري في (سنة ١٨٧٠ م) في مدينة كيرافالي (Chiaravalle) كان والدها من رجال الحكومة الناجحين، وكان من الطبقة البرجوازية، أمَّا والدتها؛ فكانت من الطبقة الغنية التي كرست حياتها لوحدة إيطاليا، في عمر (١٣) دخلت مدرسة للأولاد لتدرس الرياضيات والهندسة، ثم انكب اهتمامها علىٰ البيولوجيا وقدمت منحة للدخول في دراسة الدكتوراه.

في (سنة ١٨٩٠م) رفضت؛ لأنَّها امرأة، وبعدها قاتلت دفاعًا عن حق المرأة في القرن التاسع عشر، وبعد نضال دام ست سنوات أصبحت أول امرأة تحصل علىٰ شهادة الدكتوراه في الطب في إيطاليا، عينت طبيبة نفسية، ثم اهتمت بذوي الاحتياجات الخاصة وتعليمهم.

في (سنة ١٨٩٦ م) ألقت محاضرة لشرح طرق التدريب للأطفال من ذوي الحالات العقلية الخاصة، وأعجب بها وزير التعليم آنذاك، والذي كان عضوًا في منظمة كرست عملها للأطفال الذين يعانون تحديًا عقليًّا في التعلم وانتدبت بعد هذه المحاضرة للعمل في هذا الجانب، ثم طورت برنامجًا مخصصًا للأطفال من

ذوي الإعاقات العقلية؛ ليمكنهم من الكتابة والقراءة.

في برنامجها الخاص لم تعتمد علىٰ طريقة الإعادة والتكرار التي كانت منتشرة في وقتها، بل جعلت كل عملية التعليم عبارة عن تمارين وخبرات؛ فالنظر يصبح في نهاية المطاف عبارة عن عملية قراءة واللمس يصبح في نهاية المطاف عملية كتابة، وتقدم العديد من طلابها بعد ذلك لاختبار الكتابة والقراءة وأغلبهم حصل علىٰ فوق المعدل الطبيعي للطلاب العاديين!

تقوم فلسفة مدام مونتسوري علىٰ تقسيم المرحلة العمرية للطفل إلىٰ مرحلتين:

(١) مرحلة الاستيعاب التي بدورها تنقسم إلىٰ مرحلتين:

(أ) مرحلة الاستيعاب غير الواعي.

(ب) مرحلة الاستيعاب الواعي.

(٢) والمرحلة الثانية هي مرحلة الحساسية.

في مرحلة الاستيعاب غير الواعي والتي تمتد إلىٰ أول ثلاث سنوات يتفاعل الطفل مع كل ما يجد في البيئة، ويحاول استيعابه، أمَّا في المرحلة الثانية من الاستيعاب الواعي والتي تمتد من عمر الثالثة إلىٰ السادسة يصبح الطفل أكثر انتقاءً وأكثر وعيًا، فلا يستوعب البيئة بكليتها بقدر ما ينتقي منها ما يثير اهتمامه.

في المرحلة الثانية أي مرحلة الحساسية والتي تبدأ مع الست سنوات يصبح الطفل تركيزيا بشكل لافت للنظر وفي هذه المرحلة

بالذات يتعلم الطفل بطريقة سريعة جدًّا وبأقل مجهود ممكن.

وهنا جاء تقسيم المدام مونتسوري إلىٰ المراحل العمرية علىٰ الشكل التالي:

المرحلة العمرية	خصائصها
٦	يكون عبارة عن مستكشف حسي، يدرس أدق تفاصيل البيئة التي يتواجد فيها، ويحاول استيعاب دقائق لغته وثقافته.
٦-١٢	في هذه المرحلة يصبح الطفل مستكشف مفاهيم، بحيث ينزع نحو المجردات، ويميل للمعرفة والاستكشاف ليوسع عالمه.
١٢-١٨	في هذه المرحلة يصبح الإنسان مستكشفًا اجتماعيًّا، حيث يبحث عن مكانه في المجتمع، وماذا يستطيع أن يقدم له.
١٨-٢٤	يصبح الإنسان نزاعًا نحو التغيير والاستكشاف ويستقل في القرار بنفسه.

* وهذا رسم توضيحي يبين هذا التطور:

أمَّا الصف الدراسي حسب نظرية المدام مونتسوري يتكون من الطالب والمعلم والبيئة، بخصوص الطلاب فهم من مختلف الأعمار وذلك لجعل نظرية التعليم أقرب ما تكون للبيئة الطبيعية.

ونستطيع أن ندمج قصة نجاح بقصة أخرىٰ، حين نعرض مقالة للبيئة الصفية حسب فلسفة مدام مونتسوري من خلال الموقع الرائد والأوحد في الوطن العربي الذي يهتم اهتمامًا مباشرًا بالتعليم المنزلي، وهو موقع ابن خلدون، فعندما سئلوا من هم قالوا:

هي شركة رسميّة مسجّلة في هونج كونج، ومتخصِّصة بتقديم منتجات وخدمات التعليم المنزلي والمنعكس.

* الخدمات التي تقدمها ابن خلدون:

(١) دورات تدريبيَّة متخصِّصة للآباء المعلمين منزليًّا.

(٢) استشارات التخطيط والمتابعة للتعليم المنزلي.

(٣) منتدىٰ خاص للتشبيك والدعم بين المتعلمين منزليًّا.

(٤) متجر إلكتروني للأدوات التعليميَّة المختارة بعناية.

(٥) مناهج إلكترونية معدة للتعليم المنزلي والمنعكس.

ما هي المنهجية التربويّة في التعليم المنزلي حسب منظمة ابن خلدون؟

يجيبون: ببساطة نحن في ابن خلدون ندعم التعليم المنزلي كوسيلة لدعم حرية الأسرة في اختيار الطرق الأنسب لتعليم الأطفال، وتشجيعهم علىٰ اختيار ما يحبّون، والحفاظ علىٰ حرية أرواحهم وانطلاقتهم في استكشاف العالم المحيط، ندعم أيضًا تعليم الطفل الأساسيات الرئيسة التي تساعدهم في تعليم أنفسهم بعد ذلك كالقراءة وأساسيات الحساب.

بعد ذلك يتراجع الآباء للخلف قليلًا، وببعض التوجيه وبمناهج ممتعة يدخل الطفل لعالمه الجديد في استكشاف هذا العالم بطريقته الخاصة، حيث ينجذب لما يناسب مهاراته الخاصة بدون إضاعة الوقت فيما لا يتناسب مع مهاراته.

لماذا ندعم في ابن خلدون التعليم المنزلي كاستراتيجية أساسية في تعليم الأطفال؟

التعليم المنزلي يسند مهمة التربية والتعليم في الأساس لأكثر الناس حبًا واهتمامًا بالطفل، وهم الآباء أنفسهم، كما أنه لا يضع سقفًا للوسائل والطرق التعليمية، ويحوِّل تحديات التكنولوجيا

والتطور المتسارع إلىٰ مزايا يمكن الاستفادة منها بمرونة ويسر.

وعند تدريب الآباء وزيادة وعيهم بأساليب التعليم المنزلي الصحيحة ينبثق أمل حقيقي في حماية الأطفال من القولبة والتنميط ويصبح المستقبل بإذن الله «أفضل من التوقعات»!

ونعود للغرفة الصفية عند مدام منتسوري يشرحها أصحاب موقع ابن خلدون بشكل جذاب، فيقولون:

استخدمت د. ماريا مونتيسوري مصطلح البيئة في أبحاثها، ولم تقتصر البيئة عندها علىٰ تلك البيئة التي توجد فيها الأشياء الجامدة فقط، بل شملت أيضًا الأشخاص البالغين المحيطين والمهمين للطفل بالإضافة إلىٰ الجو الذي يتولد من التفاعل بين المربي والطفل والبيئة التي يتواجدون فيها.

إنَّ هذه البيئة لا توجد صدفة، بل تحتاج ذكاءً وخبرةً، وملاحظة من المرشد أو المربي للطفل؛ ولهذه البيئات التي ذكرتها مونتيسوري أنواع وخصائص إليكم هي:

*** البيئة الطبيعية:**

وهي تحتوي علىٰ:

(١) الأثاث المتوافق مع حجم الطفل (الرفوف - الخزائن).

(٢) الأشياء الحقيقية الواقعية (كالزجاج والسكي).

(٣) الحديقة الملحقة بالفصل (وهي جزء هام في فصل مونتيسوري).

(٤) المحفزات الجميلة (لوحات جدارية - لوحات طبيعية).

* **البيئة المكانية:**

من أهم صفاتها:

(١) **الجمال**: من حيث بساطة الديكور والألوان.

(٢) **النظام**: فقاعدة مونتيسوري الأشهر هي: هناك مكان معين ومخصص لكل شيء ولا شيء ليس له مكان.

(٣) **النظافة**: فكل شيء قابل للغسل.

(٤) **الهدوء**: فلا ضجيج في الفصل.

* **البيئة العقلانية:**

(١) وجود نشاط واحد أو أداة تعليمية واحدة في الفصل كله وذلك ليعتاد الطفل المشاركة والنظام واحترام الأدوات.

(٢) تتصف الأدوات بالتصحيح الذاتي، فالطفل الذي يتمرن علىٰ أداة البرج الوردي مثلًا يستطيع اكتشاف الخطأ بنفسه دون حاجة لمصحح خارجي كالمعلم.

* **وأخيرًا البيئة الاجتماعية العاطفية:**

ومن أهم شروط هذا النوع من البيئات:

(١) **التجمع العامودي**: الذي يضم أطفالًا من مختلف الأعمار ففصول مونتيسوري تقسم كالتالي من (٠ حتىٰ ٣ ومن ٣ حتىٰ ٦ ومن ٦ حتىٰ ٩ ومن ٩ حتىٰ ١٢سنة ...).

إنَّ دمج الأطفال بهذه الطريقة الثلاثية يجعل الطفل الصغير يلتقط اللغة والتصرفات السوية من الطفل الأكبر منه، وكذلك هو يتحمس للعمل بأدوات الكبار ويجد من يعينه من الأطفال.

وكذلك الطفل الكبير يتعلم مهارات القيادة والمساعدة والرحمة والمعاونة ممَّا يزيد ثقته بنفسه وفي نفس الوقت يسترجع المعلومات التي تعلمها سابقًا عندما يشاهد طفلًا أصغر منه يعمل بأداة سبق وأن عمل بها.

(٢) **حرية الحركة**: فلا يمكن اعتبار المنزل أو المدرسة بأي حال من الأحوال كثكنة عسكرية، بل علىٰ العكس الطفل في بيئة مونتيسوري حر بحركته ضمن المكان الموجود به وهو حر بأن يختار أعماله حتىٰ لو اختار في يوم ما أن يجلس منفردًا يتأمل لوحة طوال اليوم وهذا كله ضمن القواعد التي اتفقنا عليها سابقًا.

(٣) **دور الأم أو المرشد**: إنَّ الدور الأكبر في الفصل يقع علىٰ عاتق المربي سواء كان معلمًا أو أمًا في المنزل تتبع نهج مونتيسوري؛ لأنَّ المرشد بكلا الحالتين هو المسؤول الأول عن تحضير كل ما سبق ذكره بدقة كما يتوجب عليه متابعة الأطفال وملاحظة تطورهم وحاجياتهم ورغباتهم ليغير ويعدل في البيئة وفقًا لذلك وبشكل مستمر.

إنَّ دور المربي في فصل مونتيسوري ليس كدور المعلم في الفصول التقليدية؛ فهو لا يتدخل ولا يقاطع الأطفال ولا يقدم لهم المعلومات جاهزة إنه مرشد وموجه يستغل مراحل الطفل الحساسة

ليجعل البيئة محفزة له ليتعلم بمتعة وسهولة.

وأي خلل في تهيئة هذه البيئة سيؤدي إلىٰ خلل في تطور الطفل الطبيعي وسيحتاج منَّا جهدًا أكبر في المراحل اللاحقة وربما لن نستطيع تفادي بعض المشاكل لا سمح الله، فإن أتقنت الأم هذه الواجبات توصلت مع طفلها لنتائج الأهداف المرجوة بكل يسر وسهولة[1].

وهنا أقدم نقد بسيط لنقطة جوهرية في ما خطته مدام مونتسوري وهي مراحل تطور الطفل أو الإنسان حيث جعلت نهاية تطوره مع العشرينات، وهذه في العموم عبارة عن استلال للسياق الغربي الذي أربك مرحلة النضج عند الشعوب، لننظر بداية إلىٰ هذه المقاربة اللغوية بين:

Adolescence & puberty.

الأول يعني المراهقة والثاني يعني البلوغ، والأول غربيا هو المرحلة الممتدة من (١٣ نحو ٢٠) حسب رأي لطفي الشربيني في معجم مصطلحات الطب النفسي.

أما الثاني؛ فهو اكتمال الأداة الجنسية من مرحلة المراهقة فقط.

---

(١) http://ibn-khaldon.com/%D8%AE%D8%B5%D8%A7%D8%A6%D8%B5-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D8%A6%D8%A7%D8%AA-%D9%81%D9%8A-%D8%BA%D8%B1%D9%81%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%88%D9%86%D8%AA%D9%8A%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A/

في النص العربي القديم تجد أن مفهوم المراهقة هو قبل سن البلوغ والتكليف، أما مجرد ما بلغ الشاب أو الفتاة أصبح من البالغين أصحاب الرسالة والتبليغ في الأرض.

فمرحلة المراهقة في سياقها الإسلامي لا تحمل الحمولة الشرسة من وصف البالغ بأنَّه أرعن ولا يعرف مصلحته، وأنَّه متمرد وغير مسؤول، بل الأعجب أنَّها أصبحت لغة إعذار= دعه إنه مراهق!

ولكن مجددًا ومع نقدنا لهذه المرحلة التي تلقي بظلالها قطعيًّا علىٰ طريقة تعليم البالغ؛ إلَّا أنَّنا مضطرين للتعامل مع السياق العام التي تفرضها لغتنا العادية وسياقنا الاجتماعية، فعلىٰ أن مفهوم المراهق تحور عربيًّا نتيجة استلال المصطلح من بيئة وسياق لا نتحمله إلَّا أنَّنا تماهينا مع هذا المصطلح وأصبح فينا، فنحن فعلًا نجد الشباب في أعمار (١٧، و١٨) لا يعرف من الحياة شيئًا، والحل مجددًا لا يكون في الأحلام الكبيرة الواهمة، بل الحل يبدأ في التغيرات الصغيرة، فما أن يبلغ ولدي إلَّا وعاملته معاملة التمام فهو تحت حكم التكليف وأراعي أنه ينقصه الخبرة، وأحوال نقل هذا المفهوم إلىٰ معلم جار لي عله يعامل طلابه علىٰ هذا الأساس، وهكذا نعمل علىٰ الأهداف الصغيرة التي هي اللبنات التي تكمل البيت، أما أن نحاول أن نبني بيتا دون لبناته فهذا حرث في الماء لا يستقىٰ منه ولا ينفع مع دواء.

وأفضلُ قصةٍ أختمُ بها قصصي
هيَ قصةُ الشيخِ الألبانـيِّ -رحمه الله تعالى-

فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وُلد في مدينة أشقودة عاصمة دولة ألبانيا في (سنة **١٣٣٣** هـ) لعائلة فقيرة، كان والده الشيخ نوح من علماء البلاد ومرشدهم، هاجر هو ووالده إلىٰ دمشق بعدما تغير أحمد زاغو ومال نحو الغرب وعلمانيته، أتم العلامة دراسته في مدرسة الإسعاف الخيري في دمشق ونظرًا لرأس والده الخاص في المدارس النظامية من الناحية الدينية، فقرر عدم إكمال دراسته النظامية ووضع له منهجًا صارمًا، علمه في القرآن الكريم والتجويد، والنحو والصرف، وفقه المذهب الحنفي.

أخذ عن أبيه مهنة إصلاح الساعات فأجادها حتىٰ صار من أصحاب الشهرة فيها، وأخذ يتكسب رزقه منها، وهذه المهنة الحرة وفرت له وقتًا جيدًا للمطالعة، واجتمع ذلك بتعرفه للغة العربية مع هجرته للشام فأخذ المصادر من مظانها.

مع تحذير والده له من علم الحديث إلَّا أنَّه تحرر من ذلك واتجه له، ويبدو أنَّ بذرة والده بتحريره من المدرسة أثمرت نفسًا حرة، فتأثر بمجلة المنار، وصرف نفسه لعلم الحديث، ومن كثرة

حرصه علىٰ العلم بات معروفًا في البيئة الشامية، حتىٰ وصل الأمر بإدارة المكتبة الظاهرية بدمشق أن خصصت غرفة للشيخ، وأُعطي مفاتيح المكتبة حيث يدخلها وقت ما يشاء[1].

نتفق أو نختلف مع العلَّامة الألباني إلَّا أنَّه قطعًا يشكل ظاهرة في الوعي الإسلامي الحديث عمومًا والوعي السلفي خصوصًا، فقد كانت شخصيته الصعبة وعصاميّته لها أكبر الأثر في توجيهاته وتأثيره علىٰ غيره، فكان منارة للكثير في صبره وجهده وقوته في البحث، وأثبت بشكل ليس له نظير أنَّ بإمكان الرجل أن يتميز في جانب معين دون دخوله في الترتيب الهرمي للمدارس.

إنَّ أعظم ما يستفاد من قصة الشيخ أن الخروج من منظومة معينة لا يتم إلَّا بالصبر والتصبر وسهر الليالي، فإن قررنا مثلًا لأحد أبنائنا أن يخرج من المنظومة، فهذا لا يعني أنَّ الأمر سهل، بل في ظل استحكام دولة المؤسسات وتمكنها من رقاب الناس وتوجيهم بات الأمر أصعب بكثير من أيام الشيخ، لكن ما يهمنا هنا أن مسيرة الشيخ ستبقىٰ منارة مفعمة بالحياة توجه خطواتنا وتعبد لنا معاني النجاح التي لا تبنىٰ إلا علىٰ جسر من التعب.

رحم الله الشيخ، وجزاه الله خيرًا، وتجاوز عن غلطه، وجمعنا به علىٰ سرر متقابلين.

---

(١) «**عظماء بلا مدارس**»، عبد الله صالح جمعة، مكتبة العبيكان، (ص/٨١، ٨٢).

كلمةٌ وخلاصةٌ
للشيخِ أحمد سالم

وخير ما أختم به هذا الكتاب كلام أستاذي أحمد سالم في هذا الباب، فهو الخلاصة والزبدة لكيفية التعامل مع إشكالية المدرسة وعيوبها حيث يقول:

قد لا تستطيع تخليص أولادك من براثن هذا الوحش؛ نظرًا لتعقد الموضوع وافتقادك للموارد اللازمة له، وضعف الحلول البديلة، كل هذا أستطيع فهمه؛ فأنا نفسي مثلك.

لكنَّ الذي لا أستطيع فهمه هو إصرارك علىٰ التحول إلىٰ مخلب من مخالب الوحش!

الوحش لا يرىٰ في قدرات ومواهب وملكات الأولاد أي فروق، هو يصر علىٰ نظام واحد يريد قولبة الجميع داخله، وأنت تقوم بمهمتك كمخلب له في تنفيذ هذا التصور الأحمق القاتل.

الوحش لا يرىٰ سوىٰ طريقة واحدة ومعيار محدد لتقييم الأولاد وإسباغ ألفاظ الذكي والبارع والمتفوق والمهذب عليهم، وأنت تقوم بدورك ببراعة في العملية ذاتها وبالتصور ذاته.

لا بُدَّ أن تتعاون المدرسة والبيت معًا في العملية التعليمية، وأنت تستجيب لهم وتشارك بحرص ومهارة في عملية القتل هذه.

مناهج لا معنىٰ لها، تحفظ حفظًا لا معنىٰ له، لتسكب في اختبار لا معنىٰ له؛ لتنتج أشخاصا لا معنىٰ لهم . . .

لا تكن مخلبًا للوحش يقطع بك نفوس أولادك.

(١) الولد يحب أن يغيب من المدرسة، اتركوه يغيب، فهي كيان بغيض علىٰ كل حال، وأثر ذلك علىٰ انضباطه الذاتي يمكنك تعويضه لو فرغت نفسك لولدك قليلًا لتعلمه الانضباط الذاتي في أمور أكثر أهمية؛ لأنَّك أكيد لم تكن فرحًا بطوابير الجيش الغبية، ولم تعتبرها يومًا وسيلة لتعليم الانضباط، المهم أن لا يغيب عن المدرسة كي يتسكع أمام التلفاز؛ لأنَّك لا تملك له الوقت ولا أمه.

(٢) درجات الولد متوسطة في الاختبارات، ممتاز ليست هذه الدرجات معيارًا لشيء ذي بالٍ، ولا يمكنك تعويض فارق الدرجات عن طريق إنهاك نفسه وروحه وبدنه ومواهبه وشخصيته = ارحمه!

(٣) التعليم عملية تراكمية، وكثير ممَّا ترهق ولدك لاستيعابه سيستوعبه بعد ذلك ويستوعب أكثر منه، هذه الثرثرة في سِنه هذا ليست مفيدة.

(٤) ابني بطيء الفهم في الرياضيات، خذ الأمور ببساطة،

ابذل من الجهد في هذا الاتجاه الشيء اليسير، لا تقف بالسوط علىٰ ظهره، تسعون بالمائة من هذه الرياضيات لن تفيده في حياته العملية والقدر المهم منها سيمكنه تعلمه بعد ذلك عندما يحتاجه، وذكاء الناس ومواهبهم مختلفة أصلًا، قد يكون بين يديك سيارة سباق، لكنك تظنها فاشلة؛ لأنك مُصِرٌّ علىٰ صعود الجبل بها.

(٥) ابني لِعبي -كثير اللعب-، شيء طبيعي أنَّه يكون لِعبيًّا تريده يفعل ماذا، يركب نضارة ويكتب علىٰ باب غرفته الدكتور فلان، دعك من أساطير القولبة هذه.

(٦) ابن فلان حفظ القرآن كله وعنده ست سنين، عادي الناس مواهب، وكثير ممَّن جلدوا أبناءهم حفظًا للقرآن والسنن خرج هؤلاء الأبناء أشخاصًا عاديين اليوم بلا ميزة أخلاقية أو دينية عن كثيرين غيرهم، وأنا أقولها لك باطمئنان وقد درست وتابعت بعض هؤلاء الأطفال حتىٰ صار بعضهم رجالًا اليوم: قصة محاصرة الأطفال لحفظ القرآن والسنن والمتون قصة فاشلة في معظم الأحوال ولا تبني عالمًا كما تتوهم.

(٧) ابنك لا يحتاج لاستبدال وحش الجيل القرآني الأسطوري بوحش المدرسة، ابنك يحتاج لبناء شخصيته وطريقته للتفكير وأن يحب الدين والقرآن ويتعلم منه ما تزكو به نفسه، ويرسخ عنده مكارم الأخلاق ودعائم تعظيم الوحي والصلاة والذكر، ابنك لا يحتاج لأكثر من تربية البيوت الكريمة مع تأصيلها بالوحي ودعمها بتعليم طرق التفكير السليم، ابنك يحتاج إلىٰ

اقترابك منه، ومصاحبتك له، ابنك يحتاج من أمه وقتًا يعادل فقط وقت غسيل المواعين تجلس فيه معه وتسمعه.

(٨) قل للمدرسين: لا تشتموا أولادي ولا تضربوهم، ولو أخطأوا؛ هم ليسوا أغبياء ولن أعلمهم بقتل نفوسهم.

(٩) التربية والتعليم تكرار، وابنك لا يستجيب لأوامرك لنفس العلل التي تعصي أنت بها أمر الله، فافهمه واصبر عليه.

(١٠) ابنك لا يحب القراءة وهناك مشاكل أخلاقية عنده؛ لأنَّه منهك النفس فيما تحمله به، لا وقت عنده ولا عندك لتنمية مواهبه وإصلاح سلوكه؛ فالوحش بمساعدتك: يلتهم نفسه.

أنا لم أصنع أبناءً نموذجيين، بل أعاني وأغلط في تربيتهم وأصيب، لكني وصلت لنتيجة مهمة: أنت تكرر مع أبنائك نفس الأخطاء التي حدثت معك، وتعظهم بما لا تعمله، وتحملهم ما لا تطيق، ولن يكونوا بهذا أحسن منك، بل ربما صاروا أسوأ منك.

وصلىٰ الله وبارك وسلم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه ومن سار علىٰ دربه إلىٰ يوم الدين.